دار الكتب الوطنية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشابي من خلال يومياته لمحمد فريد غازي (1929-1962)

بدأ اهتمام فريد غازي (1909-1934) بالشّابّي في سنة 1947، حيث نشر مجموعة مقالات عنه في جريدة الوزير (1920-1956). وفي الخمسينات استأنف أبحاثه معتمدا على مذكّرات الشّابّي التي تبدأ من 1 جانفي 1930 إلى 29 فيفري 1930. وفي هذا الكتاب يحاول المؤلّف إيجاد الصّلات بين حياة الشّابّي ووسطه وشعره، ويتأمّل "حياته النّفسانيّة"، وينتقد بعض توجّهاته الرّومنسيّة.

المؤلف : غازي، محمد فريد
الناشر : الدار التونسية للنشر
تاريخ النشر : 1975
اللغة : عربية
الموضوع : دراسة أدبيّة
تصنيف ديوي العشري : 814
المفاتيح : فريد غازي، أبو القاسم الشّابّي، أدب تونسيّ، نقد نفسيّ، تونس، الخلدونيّة الرّقميّة، الإنسانيّات الرّقميّة.

A-8-94682

دار الكتب الوطنية التونسية © كافة الحقوق محفوظة

الشابي
من خلال يومياته

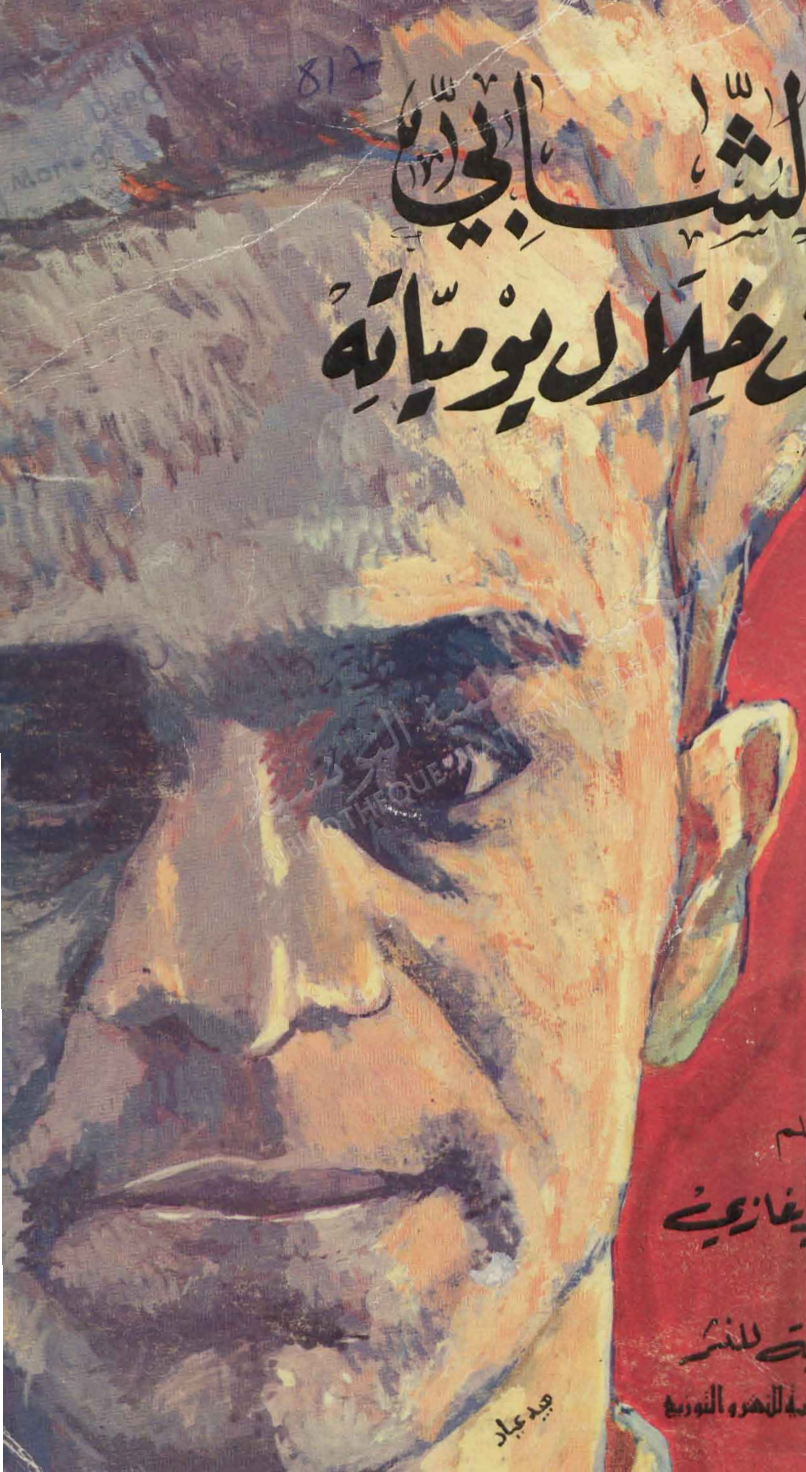

م
يغازي

ي للنشر
ة للنشر والتوزيع

مجد عبد

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

94682 - ٤ . ٣٠

أبو القاسم الشابي

من خلال يومياته

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE TUNISIENNE
169315

بقلم

محمد فريد غازي

الدار التونسية للنشر

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

© جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

كلمة الناشر

كتب المرحوم الدكتور محمد فريد غازى هذه البحوث فى الخمسينيات ، وهى بحوث تمتاز بعمقها وسلامة منهجها ونفاذها الى صميم نفسية الشاعر تتقصاها وتجلو غوامضها، ويزداد الامر وضوحا حين نشير الى ان هذا الضرب من الدراسات المنهجية كان قليلا ، وكان يطغى على ما ينشر غالبا فى مجال الدراسات الادبية آنذاك الغثائية المفرطة والتزيد اللفظى والتداعى الفج الذى تنثال بسببه الخواطر المتهافتة .

لقد رفه هذه الدراسة المنهجية عمق احساس الكاتب بمشكل الشابى وافادته من منهج الدراسات النفسية ، المتاحة وقتئذ ، فكانت فى مستوى ادب الشابى ويومياته بصورة خاصة .

ان شغف غازى بالشابى شغف لا حد له ، رافقه طيلة حياته الادبية والفكرية التى امتدت قرابة العشرين عاما فما قلاه ، ولا حول اهتمامه عنه تعدد مشاغله الادبية والفكرية بل انه ما انفك يعرج مع ادب الشابى فى فسيح آفاقه فيجلو رؤاه ويفتق مفاتن خياله ويكشف عوامل المحنة التى ادركت الشاعر فى عمره الغض .

والدار التونسية للنشر اذ تنشر هذه الدراسة فانما تهدف الى احياء ذكر علمين من اعلام الادب والفكر فى تونس : الشابى وغازى

الدار التونسية للنشر

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

تمهيد

شئنا منذ سنوات عديدة ، وقد تصدينا لدراسة « أبي القاسم الشابي » حياته ، مؤلفاته وشعره » دراسة علمية (وقد ظهرت أولى دراساتنا له سنة 1947 في ثمانية فصول نشرتها جريدة « الوزير » ألا نكتب عن الشابي الا اذا اكتملت لدينا المواد التي تعيننا عن البحث ، وتمكننا من استجلاء شخصيته القوية استجلاء ان لم يكن كاملا ، فهو على كل حال قريب منه ، وهذه المواد ، مع شعره ، مذكراته ومكاتباته Correspondance ولا نجد بدا لاستجلاء مظاهر فريدة باهرة من شخصية أبي القاسم الشابي ، من دراسة يومياته أو مذكراته أولا ، ثم مراسلاته .

يوميات الشابي أو مذكراته ، عبارة عن مذكرات تبدأ من اليوم الأول

من شهر جانفى سنة 1930 الى اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير من نفس السنة ، (ونحن لا نعلم هل استمر الشاعر فى تحريرهـا أم لا) ٠

ويملك هـذه اليوميات المحامـى الأستـاذ ا ٠ ب ٠ الذى مكننا ـ ونحن نشكر فضله ـ من أخذ نسخة ٠ وقد نشـرت مجلـة « العـالم الأدبى » بعض مقتطفـات منهـا تحت عناوين ادبية محضـة دون ان يشير الشابى أنها فصول من مذكراتـه وكذلك نشرت مجلـة « مكارم الاخلاق » بعض الصفحات ، وقد اشارت الـى ذلك ، لكن يـؤسف ان الصفحات المختارة لم تمس الشابى مسا مباشرا ٠ والجدير بالذكـر أن « اليوميات » تجلى لنا ، كمـا قلنا ، مظهـرا بل مظاهر عديدة من شخصية الشابى التى لم يحاول الأدباء والنقاد أن يتعرضوا لها ٠

فمذكراته أنوار ساطعة ، تنير نواحى مظلمة من حياته ، لولاهـا لفاتنا منها الكثير ٠ وهى توجه بحثنا توجيها واقعيا، يخلو من الاعتماد على شعره فقط ٠

المرأة والحب

يوم الاربعاء في 1 جانفي 1930 :

نشرت مجلة « مكارم الاخلاق » وكذلك « العالم الادبي » (في حياة الشاعر) فقرات من هذا اليوم ، غير ان هنالك فقرة تنير انارة قوية هذه المشكلة التي تضارب نقاد الشابي واصدقاؤه : هل احب الشابي امراة من لحم ودم ، ام هل احب « المراة » كفكرة مجردة ؟ (انظر مقدمة ابي القاسم كرو لكتابه عن شعر الشابي) .

يقول الشابي في مذكراته ، في ذلك اليوم ... « ثم ها هي تلك الريحانة الجميلة التي انبتتها في سبيل انامل الحياة . ها هي تنظر الى بعينيها الجميلتين العالمتين بأحلام الملائكة . ثم تشير براحتها

الجميلة الساحرة وبأناملها الدقيقة الوردية . ثم ها هى تطبع على ثغرى بشفتيها المعسولتين برحيق الحياة ، ويتابع فيقول « ثم ها هو أبى ينظر الى بوجهه الباسم الضحوك ، ومن عينيه تفيض عواطف الأبوة الراحمة الحنون . وها هو يحادثنى ...»

لم يكن الشابى ليحدث ، فى آن واحد ، عن وجه فتاة خيالية ، وعن وجه والده الواقعى ...

والابحاث التى وصل اليها النقد الادبى الحديث وخاصة دراسات « بلاكانوف » عن الفن والمجتمع تؤيد راينا ، فى ان الشابى يتحدث هنا عن فتاة واقعية ، عرفها وأحبها وأحبته . فوصفه « ها هى تنظر الى بعينيها الجميلتين الحالمتين » و « ثم تشير براحتها الجميلة الساحرة وبأناملها الدقيقة الوردية » .. وصف واقعى لا تجريد فيه ... واغلب الظن ان الشابى كان (ونحن لا نملك « وثيقة » أدبية تؤيد ما نذهب اليه) طفلا مرهف الاحساس ، فقد استيقظت مشاعره وهو لا يزال بين العاشرة والثالثة عشرة .

ودون شك ، ـ عندنا ـ أوحت هذه « الريحانة الجميلة » الى الشاعر قصائده الغرامية الأولى ، وقصيدته « الجنة الضائعة » فيما بعد ، فى الطور الذى ظهرت فيه كتب لامارتين مترجمة بقلم أحمد حسن الزيات (رفائيل ، مثلا) .

الطبيعة والأدباء

ويجلى لنا يوم الجمعة 3 جانفى 1930 فيما يجلى صورة صادقة لحياة الشاعر اليومية اذ يقول ـ وقد كاد يصفها وصف رسام ـ ...

« انتبهت الساعة العاشرة صباحا ، وقد كنت على اتفاق مع صديقى على زيارة صديق فى بعض المصطافات الجميلة بضواحى الحاضرة » .. وتأتى العشية دون ان ياتى الصديق .. « اذ قام بنفسى ان اقضى الامسية فى ذلك المنتزه الجميل الحبيب الى نفسى « البلفيدير » . فكرت فيما ينبغى لى ان احمله معى من الكتب فى نزهتى الجميلة وتلك عادة من عادات نفسى ، لا استطيع ان اذهب الى البرية دون ان استصحب كتابا وسواء ان احمل معى « ديوان

العقاد » ثم « تاسيس » ثم التفت فرايت على المنضدة كتاب « الآراء والمعتقدات » لقوستاف لوبون · فعدلت عن الاثنين واتخذته سميرى وغادرت المدرسة » ·

تلك هى بعض من المؤلفات التى يقراها الشابى · وهو من المعجبين ان لم نقل من أتباع العقاد ، وهو يفضله على المازنى تفضيلا يحلله (وهو يؤيد رايه هذا فى يوم من يومياته) ·

وعسانا نهتدى يوما الى تاثير العقاد (الذى خلف جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة) فى قلب الشابى على شاعرنا ، فنهتدى الى مرحلة جديدة هامة من حياة الشابى الفكرية وتطوراتها ·

* * *

وأما **يوم السبت 4 جانفى** فهو يوم قضاه الشاعر فى احضان الطبيعة ، يحمل بين سطوره نواة لقصائد عديدة طرقها الشابى فيما بعد · يقول الشابى : « فى هذا الوسط الشعرى البديع ، جلست منفردا على ربوة صغيرة تتصل بتلال كثيرة ، افكر باحلام الحياة ، واتملى جمال الوجود ··· الى هاته الربى الجميلة ، والتلال الساحرة، منذ ست سنوات ·

قد كنت آتى منفردا بنفسى ، متتبعا هاتيك السبل الصغيرة ، بين المزارع » ·

اليس هذا ، لو حللناه ، الاطار بل البيئة التى اوحت الى الشاعر (اغانى الرعاة) ·

ويتابع الشابى يومه ، فيقول ، متحدثا عن تنزهاته بين احضان الطبيعة :

« احاذر ان ادوس زهرة يانعة او اكسر غصنا يداعبه النسيم · قد كدت اشعر فى اعماق قلبى ، اننى ارتكبت جناية كبرى حينما اقتطف زهرة ناضرة ! وغصنا رطيبا · الست ارى تيار الحياة ، يتسلل فى اعماقها على مهل واراها ترمق للافق الجميل ؟ الست اراها ترتعش ، بين احضان النسيم ارتعاشات الغانية على صدر عشيقها السعيد ؟ بلى ! فكيف تطاوعنى نفسى على ان اقتطفها فتذوى وتموت وارى بعينى رفيف الحياة يفيض فى اوراقها وسحر الشباب ، يتلاشى من ثغرها الجميل ووريقاتها الصغيرة الناشئة تتناثر مضمحلة فى اكف الرياح ؟ ··· »

اليست هذه الفكرة التى استعرضها الشابى فى (الزنبقة الذابلة) قبل ! وتحمل مذكراته فى هذا اليوم ، مذكراته التى يطول بنا ان نذكرها برمتها تاثيرا قويا بروح جبران وافكاره ، خاصة (العواصف) و (الارواح المتمردة) ·

* * *

ويسترسل الشابى فى نزهاته ، فتحمله قدماه ، من جديد يوم الاحد 5 جانفى 1930 لكن صحبة رفيقين ، الى الطبيعة قد كان (يقول الشابى بعد مقدمة طويلة) احد رفقائى يحدثنى حديثا هادئا رزينا ، عن الاحتفال المئوى باختطاف الجزائر الذى ستقيمه فرنسا هناك · والذى خصصت له نفقات ضخمة طائلة · وهو يحدثنى عن ذلك ويبدى سخطه العنيف على كل من يذهب الى الجزائر من التونسيين ، فى مدة الاحتفال · ويذهب الى ان ذلك يكفى فى نظره ، لاعتبار فعله ، من اسقط الناس ·

وفى لهجة ملؤها السخرية ، اخذ يحدثنى صاحبى عن طائفة اخرى من الناس هى هاته الطائفة التى تدعى لنفسها الادب ، وتزعم انها خلقت لقيادة الافكار ! ثم هى ، مع ذلك ، تتخذ من مواهبها نخورا تحرقه امام العاهرات ! وهكذا نحيا تلك المهزلة البشرية التى تضحك وتبكى فى آن واحد · فتضحى بما لها من الكرامة والعزة التى هى ذخر الانسانية الثمين ، والتى يحتاج اليها الاديب والفنان ، اكثر من كل انسان ، لانها هى التى تخلق فى نفسه ، تلك النزعة الاستقلالية المنتجة · النزعة التى تجعله اكثر شعورا بنفسه واعتزازا بها مما عداه ، وبذلك ، تكتسب شخصيته الوضوح والجلاء فى آثاره وتتخذ لها مسلكا خاصا بين المسالك ، ومذهبا بين مذاهب الحياة · والتماس هاته الحقيقة ، لا يكلفنا عناء فى البحث فان اكبر شخصيات

فى عالم الادب والفنون ، انما هى تلك الرؤوس الكبيرة التي تعتز بما لها من مواهب ، وبما عندها من شعور ، والتى تشعر ان لها كيانا مستقلا ، لا يمكن ان ينهدم فى سواه ، وانها عزة لا ينبغى ان تهان ، فى حين ان اصغرها هى تلك التى يضعف شعورها بنفسها فى سبيل المهانة والذل والتقليد ، ولا تشق لنفسها سبيلا بكرا لمجد الحياة .

فالمتنبى قد كان عزيز النفس ، شاعرا بعزته وكرامته ، رغم امتداحه الملوك ، وبذلك تخطى اعناق الدهور الى سماء الخلود .

والمعرى ، قد كان اكثر شعورا بعزته وبذلك (نهج) منهجا جديدا فى الفكر ومدرسة حديثة فى تفهم الحياة » .

لم تزل تلك الطائفة من الادباء التى يتحدث عنها الشابى ، الى يومنا ، تدعى لنفسها زعامة الادب ، وقيادة الافكار ، ولا تالو جهدا فى كل مرة وفى كل مناسبة ، وبغير مناسبة ، فى التربع على اريكة الادب والفن . ولم تزل كذلك ، تضحى بكرامتها ، وكرامة الفن ، وعزة الادب كرامة وعزة لا تداس ، ولا ينبغى ان تهان تحت اقدام الشاعرات ... ولو تاملنا مليا فى يوم الشابى هذا ، لوجدنا فى اسطره مأساة الحياة الادبية فى تونس ، بل ماساة الادب الحقيقى ، والادب الحقيقى ، فى بلاد العروبة جميعا . لقد انقسم ، منذ عهود

الجمود والاستعمار التركي ، الادب الى جماعتين ، جماعة تمسكت بحبل الكرامة والعزة ، وادركت احيانا بنظرتها العريضة للوجود والاشياء فهم الفن ، لكن لم تعرف طيلة حياتها شهرة ولا طعم النصر ولا رغد العيش. وجماعة اخرى سايرت المجتمع الجامد ، وزاحمت ، لتصل الى مجد الادباء الحقيقيين ، فلم تبخل لحظة واحدة ، ولم تتردد في تضحية عزتها وكرامتها تحت أقدام « اصنام » عصور الانحطاط ، هذه الجماعة التي خلا انتاجها من روعة الفن وسمو العاطفة الصادقة ، تلك « الاصنام » التي يحدثنا عنها «يخائيل نعيمة ، في مطلع كتابه « الاصنام » وشتان بين من يكتب بالحبر وبين من يكتب بدم القلب ، كما يقول جبران .

فيمكن لنا ان نلمس من يوم الشابي هذا مظهرا من مظاهر «ماساة شاعر تونسي في القرن العشرين . وعلني لا اكون مبالغا اذا ما اعتقدت انها هي المأساة التي عاشها فيما مضى على الدوعاجي ، ومحمد العريبي ، وسعيد ابو بكر ، والطاهر الحداد (فيني A de Vigny الشعر العربي لو كتب لديوانه الظهور يوما) .

ولنعد الى ابي القاسم الشابي ، ففكرته هذه : كرامة الفن والفنان « الكرامة والعزة التي هي ذخر الانسانية الثمين ، والتي يحتاج اليها الاديب والفنان ، اكثر من كل انسان ، لانها هي التي تخلق في نفسه تلك النزعة الاستقلالية المنتجة ، النزعة التي تجعله اكثر شعورا بنفسه واعتزازا بها مما عداه ، وبذلك تكتسب شخصيته الوضوح

والجلاء في آثاره ، وتتخذ لها مسلكا خاصا بين المسالك ، ومذهبا بين مذاهب الحياة ، فهي فكرة رايناها في اول نموها في قصيدته (يا شعر) و (شعري) اي ما بين سنتي 1926 و 1928 ، ثم رايناها تتطور ، فتاخذ شكلا جميلا ونظرة اوسع في (فكرة الفنان) (1) الى المرحلة الاخيرة في (الشعر والشاعر عندنا) (2) ونحن نجد صدى ضعيفا من هذه الفكرة الاساسية في تفكير الشابي ، في عدة قصائد نخص منها قصيدته المتشبعة بروح ابي العلاء المعري ، وبفنه ، (النبي المجهول) (3) .

هذا راي الشابي ويجدر بنا ان نلاحظ انه اشار (لا شك ، دون ان يشعر) الى الازمة القوية ، التي يتخبط فيها الادب التونسي في طواياها الى مشكلة ذات عقدة عويصة لا يسهل حلها ، وهي انقسام الادب الى معسكرين : يتمتع احطهما بالشهرة والثروة ، بينما تصيب اقواهما روحا ، واسماهما تفكيرا ، واشدهما اتصالا بالتاريخية ، وبالتطور الانساني ، الاهمال والنسيان .

* * *

ولننتقل الى يوم **الاثنين 6 جانفي** ، فهو دون ريب لوحة صادقة يمكن ان يستخلص منها المفكر الذي يريد ان يستمد لنفسه صورة

---

(1) العالم الادبي عدد 59 ــ 9 ماي 1033 ص 13 .
(2) العالم الادبي عدد 29 ــ 24 اكتوبر 1934 ، ص 2 ــ 4 .
(3) العالم الادبي عدد 1 مارس 1930 ــ ص 10 .

صادقة للادب العربي في تونس في مطلع القرن العشرين ، صورة واقعية قلما نظفر بها في كتاب او في بحث ، فالكتب والابحاث التي يمكن ان يعتمد مؤرخ الادب عليها كـ « وثيقة » معدومة الوجود عندنا .

يقول الشابي ... « كنا جلوسا بقاعة المطالعة بجمعية قدماء الصادقية وكان الحديث يدور حول يوسف المحجوب ، واخلاله بالوعد الذي ضربه للناس في انه سيلقي مسامرته بـ « النادي الادبي » ... هن (برجسون والروح والجسد) ... ثم افترقنا ونفسي تفكر بالاوساط التونسية ، فاذا بي لا التفت الى ناحية من نواحي الحياة التونسية ، الا واجد نشاطا وحركة ونهوضا ، مما يشير الى اننا الآن في عصر انتقال وتطور ، ستشمل بركته كل ضروب الحياة في تونس : حقق الله الامل فقد طال هذا الظلام » .

* * *

هذه لوحة حية لما ظهر في البلاد العربية (والاسلامية) من حركة ونشاط وانبعاث عرفناه باسم « النهضة » (انظر مقالة العلامة لويس ماسينيون « النهضة العربية » مجلة (الفكر) Esprit شهر سبتمبر 1954 . وهو طور لم نزل نحس في انفسنا منه يقظة ونشاطا

وامتدادا لحركة الفكر والتاليف والترجمة (4) ولا يذهب بالنا الى ان الشابى كان يجهل ، او لم يكن يشعر الا شعورا ضعيفا ، ولا يحس بهذا الانبعاث الا احساسا فاترا ، فلننظر فى رسالة من رسائله بعث بها الى الاستاذ محمد الحليوى ، فنفهم ادراكه القوى لهذه المرحلة الحاسمة من الحياة الفكرية فى المغرب العربى (انظر جريدة الزيتونة ، عدد خاص بالشابى 3 نوفمبر 1954 ص 9) ، وما الدور الذى كان الشابى ارتسمه لنفسه فسوف نستخلصه فيما بعد ، من بعض الصفحات من يومياته الثمينة وسوف ندرك ادراكا كاملا فكرة الشابى فى الفن والفنان ، وفى شخصيته .

* * *

وسننتقل الآن الى **يـوم الاربعـاء 8 جانفى** ، تاركـين يوم الثلاثاء 7 جانفى) الى ما بعد ، حتـى نستخلص من يومه هذا مشهدا صادقـا رائعا ، ولوحة نابضة بالحياة عن « البيئة » التى كـان يعيش فيهـا الطالب الزيتونى ، فى حياته الخاصة ، فى مدرسة من تلك المدارس التى لم تزل الى يومنا هذا براكين ترمى بالنار ، نار الذكاء ، ونهـار

---

(4) يجدر بالباحث ، ان يطالع ذلك الانبعاث بمجموعات المجلات والجرائد التونسية التـى عملت منذ سنـة 1925 ، خاصـة جريدة « العالم » ومجلة « العالم الادبى » ... ويجـدر العودة الـى البحث القيم الذى ظهر بقلم المستشرق الكبير الاب ديمرسمان « ستون سنة من حياة الفكر التونسى » (مجلة ابلا IBLA 1953) .

الادب ، الادب الحى الذى يشق طريقه بين الابداعية والرمزية ، متطلعا الى الالتزامية الصادقة .

يقول الشابى : « لم اغادر المدرسة سحابة هذا اليوم ، فقد كان النهار كئيبا متجهما ، تتلبد فى سمائه غيوم كثيرة . وكان العملة يعملون لتكليس غرف الطلبة . وكانت ادباش الطلبة مكردسة ، هنا وهناك . وكانت آلات العمل مبعثرة بالبيوت ، وامام الجدران . وبالجملة ، فقد كان منظر المدرسة على غاية من التشويش ، وسوء النظام . ومع ذلك إخترت المكوث بالمدرسة كامل هذا اليوم . على ان لا اغادرها . فقضيت قسما من الصباح فى دراسة قانونية ، صحبة بعض رفاقى من طلبة الحقوق ، زارنا فى اثنائه ضيف ثقيل ، كاد ان يكدر علينا الحياة ... ولبثت صامتا ، اصغى لحديثه الممل ، واعجب لروحه الثقيلة التى لا تفهم انها نقمة سلطها الله علينا .

... واما المساء ، فقد قضيته بين التنقل من بيت الى بيت ، ومن الوقوف مع هذا الطالب الذى يخاصم العامل ويتهمه بانه غشه ولم يخلص فى عمله ، ويهدده بانه سيأتى بامين ... وما هى الا ساعة حتى اقبل صديق اديب وبيده « السياسة الاسبوعية » (5)

---

(5) جريدة « السياسة الاسبوعية » من الجرائد التى عظمت شهرتها فى تونس ايام كهولة وشباب ابى القاسم الشابى ، مديرها محمد حسنين هيكل . والتى من واجب الذى مارس الشابى ان يطلعها ، وكذلك مجلتى « الهلال » و « المقتطف » .

فتناولتها منه ، واخذت اقرا بعض الفصول فيها ، فوقع نظرى فيها على فصل موجه الى الدكتور هيكل ، ذكرنى بفكرة انتقادية وجهتها على مقدمة هيكل التى كتبها لكتابه « تراجم مصرية وغربية » ، والتى اختصر فيها تاريخ مصر وذكر فيها آراء غريبة ، وطرقا شاذة من التاريخ ودراسته فصارحت صديقى بفكرتى • فالح على ان اكتبها وانشرها على صفحات « العالم » فوعدته ولكننى لم اكتبها لحد الآن ولا ادرى هل انا كاتبها ام لا • ان فكرة المقال جاهزة ، مهيأة ، لا تحتاج الا لاجراء القلم فاذا المقال حاضر ، لكننى اشعر بتثاقل عن كتابة الفكرة لا اعلم ماتاه » •

وبقدر ما تهمنا حياة الشابى اليومية يهمنا شيئان آخران ، اولا ، نظرة الشابى فى هيكل ، واطلاعه على مؤلفاته • وثانيهما ، شعوره بهذا « التثاقل » ، الذى هو دبيب المرض فى صدره ، تضخم قلب رقيق ضعيف •

اما هيكل (6) ، فندرك به مطالعات الشابى اذ ذاك ، فهو ان اطلع على « تراجم مصرية وغربية » الذى ظهر فى القاهرة سنة 1929 ، فهو دون ريب قد اطلع على « زينب ، مناظر واخلاق ريفية » (القاهرة

---

6) انظر كتاب الاستاذ بيرس « الادب العربى والاسلام فى القرنين 19 و 20 » (الجزائر 1947) ، تحت اسم هيكل (القسم الثانى ، النشر العربى) •

1914) وكذلك على « دراسة فى جان جاك روسو » (القاهرة 1921) ، و « فى اوقات الفراغ » (القاهرة 1925) ، هذه الكتب التى اصدرها هيكل ، وخاصة كتابيه « فى اوقات الفراغ » و « تراجم مصرية وغربية » اللذين جمع هيكل فيهما فصولا ، كان قد نشرها قبل فى جريدته « السياسة الاسبوعية » . ولعلنا لا نبالغ اذ نقول بان هيكل كان يتمتع بشهرة واسعة لدى جيل الشابى ، وان كتابيه « فى اوقات الفراغ » و « تراجم مصرية وغربية » قد تمتعا بتلك الشهرة التى تمتع بها فيما بعد كتاب احمد حسن الزيات « وحى الرسالة » .

واما مرض الشابى ، فيجدر بنا ان نحاول محاولة علمية ـ مستعينين بآراء الاطباء ـ ان ندرك اثره على فكره وتاليفه ، حتى نكون قريبين من روح البحث العلمى النزيه ، الذى قد خلت منه التآليف والفصول التى كتبت عن الشابى ، منذ عشرين سنة ، اى من يوم مات (7) .

---

7) ظهر حتى الآن ما لا يقل عن الاربعين مقالا واما كتابى ابى القاسم كرو ، فسوف يتعرض لهما بالنقد فيما بعد .

حياة المدارس بتونس سنة 1930

وتجد عن الوسط التقليدى ، صورا متعددة عن يوميات الشابى ، وحياته داخل ذلك الاطار الذى حددناه فى بحثنا باللغة الفرنسية عن الوسط الذى عاش فيه شاعرنا .

ولنستعرض الآن صورة من هذه الحياة التى كان يقضيها الشابى فى مدارس الطلبة (1) وهذه هى صورة من حياته الليلية فى رمضان .

« صور كثيرة متباينة هذا اليوم وليلته ، ولكن اين هو الفكر الذى يستطيع استحضارها ؟

---

1) المدرسة السليمانية .

فاني ما شرعت أكتب ، وكلفت ابن عمي الصغير بأن يسخن سحورنا على (البابور) حتى اضطربت حركاته وتلعثم لسانه فلم يستطع ان يبين .

فقلت له : « ماذا ؟ ، فقال : « لم أجد البابور) ! » .

ـ « أنسيته خارج البيت ؟ » ـ « كلا بل أدخلته ! » .

ـ « وكيف فقد اذن ؟ أسرقته الشياطين ؟ انك نسيته خارجا يا مجنون ! » .

ـ « كلا بل أدخلته ! » .

ـ « لا تقل أدخلته يا كلب ، وهل سرقته الجنة ، ولو كنت صادقا ؟ اذهب وابحث عنه خارجا علك تلفيه » .

فخرج الصبي ، فلم يجده ، وعاد والخيبة تغشى وجهه ، فسألته : « هل وجدته ؟ » ، فقال بانكسار « كلا ! ولكني أدخلته والله » .

ـ اسكت يا كذاب ! وظل صامتا وظللت صامتا أفكر ثم اندفعت عليه ضربا وشتما في ثورة الغضب العنيف .

ثم أفاق أخو الخطيبة ، فأعطيته حقه من الشتم والتقريع ثم سكت سكوت الغاب اثر العاصفة ، وظللت كذلك حينا ، ثم التفت الى أخي

الخطيبة وأمرته أن يذهب الى فلان ليأتى بـ (بابور) » ، فما خرج حتى ولى قائلا :

ـ «ولماذا نستعير من الناس وهذا (بابور) نا ؟ فقلت : « هل وجدته ؟ » فقال : « نعم ! » فأشرت الى الآخر قائلا : « أيها الاعمى ! أرايت كيف أنك أدخلت (البابور) وأخرجته الشياطين الى الخارج ؟ » فلم يجب بحرف وهكذا شاء الشيطان أن يهزأ بنا قليلا ما شاء له لهزء ، أنسى الفتى ادخال (البابور) ثم اعماه أن يراه ، لما ذهب للتفتيش عنه ، ثم أبداه لما يئسنا ، واعتمدنا على سواه » .

« والآن وقد فرغت من هذا الحادث العارض الذى أوقفنى عن متابعة الكتابة فى مذكرة اليوم ، ورسم ما فيها من رسوم ، فلآخذ فيما جلست لكتبه : بعد ان غادرت الادارة (2) وودعت ابن عمى ، ورجعت وجلست على المنضدة ، وأخذت أكتب ... وجاء الأخ زين العابدين (السنوسى) وأنا أكتب ، محييا أخى ، واقتحم البيت ، ولما رآنى أكتب ، وقف فى الباب يتاملنى ، ولكننى لم انتبه له رغم وقوفه وتحية أخى اليه ، ولم اشعر الا وصوت يقول : « لا أراك الا تكتب أدبا ، أليس كذلك ؟ » ، فقلت له : « لا أكتب أدبا الآن ،

---

2) العدلية التى كان يعمل الشابى بها اذ ذاك .

ولكنى أكتب « مذكراتى » . فقال : « وهل تجد الوقت الكافى لكتابتها ؟ » .

فقلت : « أجده يوما ولا أجده آخر » .

ثم جلسنا ، وتحدثنا أحاديث شتى .... » .

ونجد فى يوميات الشابى ، صفحة أخرى ، مليئة بروح عصره ، تصف لنا وصفا دقيقا مشهدا آخر من حياة الطالب الزيتونى فى « المدارس » . يقول : « هى صورة سخيفة من رسوم الحياة ... وهل فى الحياة غير السخيف ؟ .

ولكن ، حتى فى سخافات الحياة ، ما يحزن ويقبض على القلب » . انها زيارة ثقيل للمشاعر الخفيف « أما حديث صاحبنا فهو مزيج من قصص كثيرة مختلفة تعاقبت عليه فى أدوار الحياة ، وآهات وزفرات ، وابتسامات ، وقهقهة ، ونشيد وصفير ، وسخرية ورحمة، وشدة وقساوة ..

ويقدم لنا الشابى وصفا لهذا الطالب الذى اضر بعقله الجنون ، وقد فقد صوابه ، ثم عاد اليه ، ثم فقده مرة اخرى ، وصفا رائعا لانه صوره او اقامه على حادثة وخوف من مرض الطاعون الذى شاع انه حل بمدارس الطلبة الزيتونيين :

« ويندفع مسرعا الى جماعة الطلبة ، وهم يتباحثون فى مرض الطاعون ، واكثرهم خائف وبعضهم عازم على السفر » .

فى وسط هذه الصورة البشرية ، والطاعون يهدد بشبحه الرهيب حياة الطلبة ، وهم فى خوف وفى استعداد للرحيل ، يظهر المجنون صارخا :

« اننى ارادة الله ، انا نبى العالم ، انا فوق القدر . انا كلمة الله التى لا تعرف كيف ترشدهم وتهديهم والتى لا تصدها الحياة » .

فنجد فى صرخته اثرا للثورة العقلية التى كان يحياها الطلبة اذ ذاك والتى همها ان تكسر قوالب الفكر التقليدى المتزمت . فلو صرخ او فاه طالب زيتونى بهذه العبارات ، منذ قرن تقريبا ، لاطرد من الجامعة ، ولسيق الى السجن ، بل وليكونن نصيبه النفى او الموت .

اما وقد ادخلت مدرسة المهجر على العقلية الزيتونية التجديد الظاهر ، والنزوة المنطلقة ، والتحرر الشامل الذى يريد ان يشرب من ينابيع الحياة الاصلية ، فلا خوف على مجنوننا من عصى المحتسب واعوانه .

ويسترسل الشابى مصورا الطالب المجنون ، الذى يدعى ان عبقريته تعود الى اشعة خاصة غريبة ، هى « اشعة رنتجن »

« ان اشعة رنتجن هي التي ترتفع بالعبقرى مثل فوق مستوى البشر ، عليك يا صديقى باشعة رنتجن ، حتى تكون عصريا ·
ها ها ها ! ؟ هكذا تكون الحياة ! ·

نعم ! واى حياة ، تلك التى تجتاز الغضب والثورة والاضطراب لتنتصر ، ولتجد توازنها الكيانى ؟ ·

* * *

ونجده يوم الاربعاء 8 جانفى ، يصف هذه الحياة الطالبية داخل المدارس وصفا جميلا انسانيا :

« لم اغادر المدرسة سحابة هذا اليوم ، فقد كان النهار كئيبا متجهما تتلبد فى سمائه غيوم كثيرة ، وكان العملة يعملون لتكليس غرف الطلبة ·

وكانت ادباش الطلبة وخزائنهم مكدسة هنا وهناك ، وكانت آلات العمل مبعثرة بالبيوت وامام الجدران · وبالجملة فقد كان منظر المدرسة على غاية من التشويش وسوء النظام ، ومع ذلك اخترت المكوث بالمدرسة كامل هذا اليوم على ان اغادرها ·

فقضيت قسما من الصباح فى دواسة قانونية صحبة بعض رفاقى من طلبة الحقوق ، زارنا فى اثنائه ضيف ثقيل كاد ان يكدر علينا ما اجتمعنا لاجله وان ينغص علينا الحياة ·

ولبثت صامتا اصغي لحديثه الممل واعجب لروحه الثقيلة التي لا يفهم انها نقمة سلطها الله علينا .

... واما المساء ، فقد قضيته بين التنقل من بيت الى بيت ، وبين الوقوف مع هذا الطالب الذي يخاصم العامل ويتهمه بانه غشه ، ولم يخلص في عمله ، ويهدد بانه سيأتي بامين ... وما هي ساعة حتى اقبل صديق اديب ...» .

وفي هذا الجو بين الطلبة ، قضى الشابي ايام صباه وشبابه ، ولا يمكننا الوصول الى صورة بينة عن شاعرنا ولا يمكننا ان نتخيل نمو فكره وتطورات عقله وافكاره دون ان نعيده لهذه البيئة المادية لهذا « الوسط » الذي عاش فيه . والذي كثيرا ما نسيه أولئك الذين درسوه ، حتى كان الانسان يعيش غير مرتبط بواقع محسوس كالخيالات والاشباح .

* * *

والآن الا نبتعد قليلا عن المادة الصرفة ، عن هذه الصور والمشاهد المجسمة التي تبصرها العين وتكاد تلمسها لمسات اليد ونستقرىء من يوميات الشابي ناحية اخرى من شخصيته اقرب ما تكون اتصالا « بالميتافيزيقا » ، منها بعالم المحسوسات البسيطة التي يسميها الفرنج ويغدقون عليها كلمة terre à terre للتعبير على حقارتها .

وهذا المظهر من الشخصية ، الذى عده كثير ـ دون تروٍ ، ودون ان يتفهموا حقائق الامور « شخصية الشابى » كل شخصيته ، ينشأ بالضبط عن الوسط الاجتماعى ، وعن « قاعدة مادية » infrastructure materielle محضة ، اهملها ابو القاسم كرو فى كتابيه اهمالا كاملا ولكننا سوف نتعرض لهما تعرضا طويلا حتى نلمس لمس اليد ولادة شخصية الشابى وتطورها « اليس الانسان ـ كما يقول المعلم الكبير ارسطو ـ حيوانا اجتماعيا » لقد نسى باحثو ادب الشابى هذه الحقيقة البسيطة ، فاهملوا اهمالا يبعث على الاسف ، مظاهر المجتمع الذى عاش فيه ، وعلاقة ذلك المجتمع ، وما فيه من طبقات بفنه (3) .

3) انظر كتاب بلا كانوف (الفن والمجتمع) ، باريس 1952 المقدمة والفصل 1 و 2 .

وكذلك كتاب الاستاذ ر . بلانشار « تاريخ الادب العربى » ج 1 . باريس 1952 ، المقدمة .

مرض أبي القاسم الشابي من خلال يومياته (1)

لقد احس الشابي ،وهو لم يزل يتابع دروسه بجامعة الزيتونة ، ان مرضا لدودا قد اصابه . ولم يهتم الى يومنا احد بمرض الشابي هذا ، والتاثيرات المتنوعة المتعددة التي انعكست على نفسيته وادبه الجميل .

سنجد حقا ، سواء في شعره او في مراسلاته او في يومياته (مذكراته كما كان يقول) صدى بل اصداء لمرضه ، فهو يحدثنا عن

---

(1) من المؤسف ان لم يقم ، الى يومنا هذا ، حكيم شاب من التونسيين ، بدراسة الشابي ومرضه ، في « رسالة » صغيرة ، كما نرى يفعل الزبنيون وخاصة الفرنسيين ، بالنسبة لفلوبارت ، وبلزاك ، ورمبو ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

قلبه العليل (2) وعن « الرجل المريض » (3) وعن ازمة الرجل المريض (4) ، كل هذه العوامل التى جعلتنا نبحث عن مرضه ، وعن حقيقة هذا المرض ، وعن علاقته (او علاقاته) بادبه : نثره وشعره ، وبصفة عامة بوجوده .

هذه الدراسة الصغيرة ، بعثتنى عليها الملاحظات التى وجهت لى ، من طرف بعض الحاضرين ، منذ سنوات ، يوم ألقيت عن (الوسط الزيتونى وتطور الشابى الفكرى) محاضرة بمركز البحوث العربية بمعهد الدراسات العليا بتونس ، فذهبت الى ان مرض الشابى كان نتيجة لحياته طفلا ، ونتيجة لحياته فى مدارس الطلبة ، تلك المدارس التى كثيرا ما اضرت بصحة الطلبة ، جسميا وروحيا ، فكانت الملاحظات التى ابداها الاستاذ الامين الشابى ـ أخو الشاعر ـ والحكيم محمود الماطرى ، الباعث الاول على متابعة البحث والتعميق فيه .

وملاحظات محمود الماطرى كانت على غاية من الاهمية ، لانه كان الطبيب الذى عالج الشابى ـ الى يوم نفيه مع الزعماء الدستوريين الى برج لوبيف ـ (5) ، وهى التى فتحت لى فى الحقيقة باب الدرس ومتابعة البحث .

---

(2) الذى رمز اليه فى قصيدة « قلب الشاعر » (ديوان اغانى الحياة) ، تونس 1955 ، ص 183 .

(3) « يوميات » 16 جانفى 1930 .

(4) نفس المرجع .

(5) وداواه أيضا الحكيم كالو Docteur Calot ، الذى لم نستطع

وانا لا اعتقد انى قد أنهيته ، او اننى اطلعت على كـل خفايـاه ، ولكن فى انتظار ان يقوم احد حكمائنا بدراسات طويلة نفسية وافية لملف ابى القاسم الشابى ، من حيث الزاوية الطبية ، رايت من المفيد جدا ان اقدم هذه الآراء عن مرضـه .

* * *

العناصر الاولى التى نجدها تبرهن عند الشابى عن مرضه ، موجودة فى يومياتـه قبل كل شـىء . ثم نجد اصداء متنوعـة فـى شعره . وصفحات يومياته التى كتبها دون تصنع ، ودون « صنعة ادبية » ، هى الكنز الثمين وهى تكشف لك ان طور نبوغ الشابى ، الذى اذهب به من سنة 1929 الى سنة 1934 ، اى خمس سنوات ، كان فى نفس الوقت ، طور مرضه ، الذى دام هو ايضا ما يقارب الخمس سنوات . وستكون حياته ، فى نفس الوقت ، حياة الـرجل المـريض وحيـاة الشاعر الخصب .

وهكذا ترى فى وضوح العلاقة البينة بين مرضه وبين عبقريتـه .

ولكن ، ما هو مرضه هذا يا ترى ؟ .

ان صدقنا اطباءه ـ وخاصـة الحكيم الماطرى ـ قلنا ان الشابـى كان يتألم من « ضيق الاذينة القلبية » Retrécissement mitral اى ان دوران دمه الرئوى لم يكن كافيا . ولو تعمقت طبيا ، فى مرضه

هذا ، (3 لعلمت ان ضيق « الاذينة القلبية » هو ضيق او تعب يصيب مدخل الاذينة (7) ويجعل سيلان الدم في الشرايين من الاذينة اليسرى L'oreillette gauche نحو البطينة اليسرى Venticule gauche سيلانا صعبا او معترضا .

وتقول لنا كتب الطب ان هذا المرض كثيرا ما يكون « وراثيا » وضيق القلب هذا كثيرا ما ينشا عن برد يصيب الاعصاب والمفاصل (8) وهو يظهر في الاغلب عند الاطفال والشبان ، ما بين العاشرة والثلاثين (9) ، وخاصة عند الاحداث على وشك البلوغ (10) .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشا متنقلا، ولربما اصابه هذا الضيق

---

6) انظر خاصة

Pasteur Valléry Radot, J. Hamburges et F. Lhermite

ص ص 77 ـ 86

Pathologie Médicale, Paris, (Flammarion) 1948

A. Touraine, l'hérédité en Médecine, Paris, (Masson) 1955,

ص ص 366 ، 635 ، 9 ـ 624

ويرى العالم الأخير أن كثيرا ما يقارن ضيق القلب مرض العيون ، فهل كان الشابي مريضا بعيونه ؟

7) انظر ... ص ص 77 Pathologie

8) نفس المرجع ، ص ص 77 ـ 86

9) نفس المصدر

10) نفس المصدر ، ص 77

وهو لم يزل صغير السن · ضاق قلبه ، وضاقت رئته ، فلم يعد يتنفس تنفسا عاديا ، اضف تعبا مستمرا يصيب البدن ،وينهكه دون ان يقوم باى عمل ·

ولكن اهم ما فى المرض ، انه يغير نفسية المريض · وهو امر هام جدا اذا كان المريض كاتبا او شاعرا او اديبا او رساما او نحاتا او مخرجا مسرحيا او سينمائيا ··· اى اذا كان « فنانا » حقيقيا ·

كان الضيق القلبى اذن هو الضربة الاولى التى اصابت روحه · فمنعه اطباؤه من الجرى واللعب بالكرة ، ومن السباحة ، فاذا اراد ان يقفز لاعبا مع رفاقه او ان يسبح مع اصدقائه فى ا واج البحر صيفا او ان يتسلق « الجبل المكلل بالصنوبر والصخور » ، (كما يقول فى الجنة الضائعة) وجد نفسه محروما من ذلك · هكذا قرر الطبيب ، وهكذا قامت ، فى حياته النفسانية ، الحواجز تسد طريقه ، وتغطى بالسواد آفاقه · هكذا تدخل عليه « نفسية»،هى نفسية المريض تلون نفسه باليأس والاسى والتبرم فاذا به كما قال: « الشقى الذى ضاقت به رقعة الفضاء المترامى » ، فيحس احساسا مؤلما بانه « غريب » عن هذه الدنيا ·

واجدر بنا ان نصغى لشعور الشابى المريض بمرضه (11) :

---

11) « يوميات » يوم الثلاثاء 14 جانفى

« اشعر اليوم بفتور فى بدنى ، وتوعك فى مزاجى ، لا ادرى مأتاه واحس بكئابة عميقة ، تستحوذ على مشاعرى ، وتقبض على قلبى ، وتجعلنى اكره الكتب والاسفار ، والمحابر والاقلام ·

لا اريد ان اذكر اكثر مما ذكرت لاننى ارى النوم يغالبنى ، والاعياء يدفعنى الى النعاس » ·

* * *

لقد كان للشابى ادراك الرجل الواعى بمصيبته ، فقد جاء فى يومياته (12) :

« اعتزمت الذهاب الى حديقة « البلفيدير » صحبة رفيق لى ، فبريت القلم ، واعددت القرطاس ، وتابطت كتابا عسى ان اخط ما تحدثنى به نفسى من افكار ، او يفيض به القلب من عواطف ، لاننى لا اعلم متى تطغى على الخواطر ، وتزدحم على الذكرى ، وتنهال على الافكار انهيالا ·

فرب نظرة ···

··· فخرجنا جميعا ، وظللنا نسير سوية ، ولما وصلنا مفترق الطرق سالونا : الى اين تذهب · فقلنا : الى البلفيدير ·

---

12) « يوميات » الخميس 16 جانفى

فلزموا علينا ان نرافقهم الى اين ذاهبون · فقلنا : وما هى الغاية ؟

فقال احدهم : انها مقهاة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ، مكتنفة بالاشجار الجبلية والمشاهد المسبية فاستهوانى الوصف ورافقتهم · وما هى الا ساعة حتى كنا نسير بين المزارع التى تداعب الشمس اعشابها ، وكانت مشاهد كثيرة متباينة :

ها هنا صبية يلعبون بين الحقول ، وهناك طائفة من الشباب الزيتونى والمدرسى يتريضون فى الهواء الطلق ، والسهل الجميل · ومن لى بان اكون مثلهم ؟ ·

ولكن انى لى ذلك والطبيب يحذر على ذلك لان بقلبى ضعفا ! آه ! يا قلبى ! انت مبعث آلامى ، ومستودع احزانى ، وانت ظلمة الاسى التى تطغى على حياتى المعنوية والخارجية » ·

هذه حالة نفسية صاحبت الشابى منذ سنة 1930 كما اكتشفناه فى يومياته · وعلينا ان نتابع اثرها ، بما يقوله لنا علماء النفس ، لنرى مع هنرى كلود (13) ان « الاسى الناتج عن ضيق القلب يثير فى المريض قلقا مستمرا ينتهى دائما بالشعور بتعب عام يجعل

---

13) انظر
Henri Claude. Psychiatrie, 2e éd. Paris 1944, p.p. 258 - 259.

المريض يقبع بنفسه بعيدا عن الوسط الذى يحيط به ، وهذا القلق النفسى الدائم ، هذه الازمة ، نجدهـا قبل كل شىء فى يومياته ، وفى شعره . فنحن كثيرًا ما نجد كلمة « القلب » او « يا قلبى » . ففى عناوين قصائده نجد « الى قلبى التائه » (14) و « اكثرت يا قلبى فماذا تروم ؟» (15) و «قال قلبى للاله» (16) و «قلب الشاعر » (17) وليست كلمة القلب رمزا جميـلا فقط ورمـزا ابداعيـا فحسب ، بل هى ايضا تعبير نفسانى ـ نظنه لا شعوريا غالبا ـ عـن مـرض الشاعر . وان نحن نشك ان تكون القصائد التى ذكرناها ، ملامح صادقة لمرضه ، فلا يشك الشابى من ان قصيدة « الابـد الصغير » (18) وقصيدة « نشيد الجبـار » ، او هكـذا غنى برومثيوس (19) بمستوحاتين من مرضه (20) .

---

14) ديوان أغانى الحياة ، ص 91
15) نفس المصدر ، ص 93
16) نفس المصدر ، 146
17) نفس المصدر ، ص 183
18) نفس المصدر ، ص 156
19) نفس المصدر ، ص 179
20) انظر الفكر ، عدد 1 سنة 2 ، (اكتوبر 1956) ص 16 مـن رسالة الشابى ، فى 19 جانفى 1933 : « ... ولكننى على كل حال قد ربحت من تلك الازمة النفسية التى مرت فى قصيدا هو « نشيد الجبار » فانى فى ليلة من ليالى حاته الازمة النفسية المرهقة ، نمت معذب النفس ، مهموم القلب ، ثـم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فلجت بى الآلام ، وضربت بى فى كل سبيل ... » .

ولا يكـون ما قلناه كامـلا ما لم ننشر الدراسة الضافيـة التى كتبناها عن « الصورة عند الشابى » ـ تلك الدراسة الطويلة التى نتعرض فيها الى الاحساس والاحاسيس عند الشابى وحتى لأخيلتـه ولاحلامه (21) ـ ولكنه يرى معنا ان مـرض الشابى قـد لعب دورا هاما جدا فى نبوغـه وانتاجه الشعرى ·

فالشاعر يذهل احيانـا عن وجوده ، وتنتابه نوبات عصبيـة من الضعف نرى صورة حية غريبة لاحداها ، فى يومياته (22) ·

« مـا ان كلفت ابن عمى الصغيـر بان يسخن سحورنـا علـى البابور ، حتى اضطربت حركاتـه ، وتلعثم لسانـه فلم يستطع ان يبين ، فقلت لـه :

ـ ماذا ؟

فقال :

ـ « لم اجد (البابور) » ! ·

ـ « انسيته خارج البيت ؟ »

---

21) ربما قد تكون هاته الاحلام ، التى حدثنا عنها فى يومياته : يوم الثلاثاء 28 جانفى ، « ··· نمت مرة ، فـرأيت منظـرا غاية فى الروعة والبهاء وسحر الجمال ، دفعنى الى أن أقول الشعر فيه ، رأيت أولا ··· » ، نتيجة عن الحمى المائية ·

22) يوم الخميس 6 فيفرى 1930

ـ « كـلا ، بل ادخلته ! »

ـ وكيف فقد اذن ؟ اسرقته الشياطـين ؟ انك نسيته خـارجـا يا مجنـــون ! » .

ـ « كـلا ، بل ادخلته ! »

ـ « لا تقل ادخلته يـا كلب ! وهـل سرقته الجنة ؟ ولـو كنت صادقا ! .. اذهب وابحث عنه خارجا علك تلقيه ! »

فخرج الصبى وقد أعمى النوم والخوف بصره ، فلم يجده ، وعاد والخيبة تغشى وجهه . فسالتـه :

ـ هل وجدته ؟ »

فقال بانكسار :

ـ « كلا ، ولكنى ادخلته والله ! »

ـ « سكت يا كذاب ! »

وظل صامتا وظللت صامتا أفكر ثم اندفعت عليه ضربا وشتما ، فى ثورة الغضب العنيف .

ثم أفاق أخو الخطيبة ، فأعطيته حقه من الشتم والتقريع ، ثم سكت سكوت الغاب اثر العاصفة وظللت كذلك حينا ... » .

* * *

هذه مرحلة المرض الاولى وستنمو حتى تصبح ضعفا كبيرا في القلب يؤديه فيما بعد ، الى سوء رئوى نتيجة للصدمات النفسانية العنيفة التى اصابته فى المجتمع التونسى بين سنة 1930 وسنة 1934 .

فالروح والجسد ، فى حقيقة الامر ، وحدة لا تتجزأ . وكل داء اصاب هذا يصيب الآخر فالامراض التى تصيب الجسد كثيرا ما تؤثر فى الروح (23) . والامراض التى تصيب الروح، اثر الصدمات العنيفة التى تزلزل كيان انسان ما فى المجتمع ، لا تفتأ ان تؤثر فى جسده تأثيرا عميقا .

ولعل الغريب ان « الامراض الكيانية » و « الامراض العضوية » قد جمعت مصائبها ضد الشابى ، فأضرت به ضررا فادحا . وانك لتجد اصداء من هذه . فلقد راى الشابى رجال العاصمة وادباءها ورجال الصحافة فيها (خاصة كاتب فصل « المقص » بجريدة « النديم » يتألبون عليه ـ فيسمعك فى مراسلته شكواه : وما دامت « الحياة تتكيف تكيفا مستمرا ، لانفعالات الانسان الباطنية التى تجبره عليها الانفعالات الخارجية » كما يقول « سبنسر » فان الشابى

---

23) لقد كان للمهاتمة غاندى ملاحظات قيمة ، فى كتابه « تجربتى مع الحقيقة » الذى قص فيه حياته من اولها الى آخرها ـ عن هذه الظاهرة التى سماها الأطباء حديثا بالـ Allergie

قد حاول ـ وهو مريض كما راينا ـ ان يغالب هاته التيارات المعدية فتراه ، يرى نفسه متجسدا فى بطل ، كبروميثيوس ، صارخا لعنته ضد الضحافة المتملقة التى هاجمته :

« سأعيش رغم الداء والاعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

ارنو الى الشمس المضيئة هازئا
بالسحب ، والامطار ، والانواء ...

... واقول للقدر الذى لا ينثنى
عن حرب آمالى بكل بلاء

لا يطفىء اللهب المؤجج فى دمى
موج الاسى ، وعواصف الارزاء

فاهدم فؤادى ما استطعت ، فانه
سيكون مثل الصخرة الصماء

لا يعرف الشكوى الذليلة والبكاء
وضراعة الاطفال والضعفاء

ويعيش جبارا ، يحدق دائما
بالفجر .. بالفجر الجميل النائى(24)

---

24) ديوان أغانى الحياة ص ص 179 ـ 180

وهو الآن يخاطب ، وقد تجسم ـ بفضل عملية لا شعورية ، كثيرا ما نراها عند الشعراء (25) ـ في شخص «بروميثيوس» Promethée رجال الادب التونسي ، تلك النزعة المنهارة ، نزعة التقليد والتضليل :

واقول للجمع الذين تجشموا
عدي ، وودوا لو يخر بنائي
وراوا على الاشواك ظلي هامدا
فتخيلوا اني قضيت ذمائي
وغدوا يشبون اللهيب بكل ما
وجدوا ... ليشووا فوقه اشلائي
ومضوا يمدون الخوان ، ليأكلوا
لحمي ، ويرتشفوا عليه دمائي

25) نذكر خاصة قيوم أبولينار ، في قصيده الجميل « تحت جسر ميرابو » الذي شخص نفسه ومصيره بماء « السين » الجارى ... او في قصيدته « انشودة من لم يحب ... » يتجسم في أشخاص الماضي من « ملوك سعداء » كأوليس ، وساكونتال الهندي و « ملوك أشقياء » كلويس ملك بافييرا ... وهي نزعة عامة عند أغلبية الشعراء الابداعيين.

انـى اقـول لهـم ـ ووجهى مشرق

وعلى شفاهـى بسمة استهـزاء :

ـ « ان المعاول لا تهـد مناكبـى

والنار لاتاتـى علـى اعضائـى

«فارموا الى النار الحشائش والعبوا

يا معشـر الاطفال تحت سمـائـى

واذا تمردت العـواصف وانتشى

بالهـول قلـب القبـة الزرقـاء

ورايتمونـى طائـرا مترنمـا

فوق الزوابع ، فى الفضاء النائى

فارموا على ظلى الحجارة ، واختفوا

خوف الرياح الهوج والانواء ...

وهناك فى امن البيوت تطارحـوا ،

غـث الحـديـث ، وميـت الآراء

وترنموا ـ ما شئتـم ـ بشتائمـى

وتجاهروا ـ ما شئتم ـ بعدائـى

امـا انـا فاجيبكـم من فوقكـم

والشمس ، والشفق الجميل ازائى:

من جاش بالوحـــى المقدس قلبـه

لـم يحتفـل بحجـــازة الفاتـــاء

* * *

وانى لا اذهب الى ان قصيدة « ارادة الحياة » (26) تستلزم تفسيرا اعمق مما نذهب اليه فى كل مـرة ·

لا شك اننا نرى تصويرا للشعب ، ولكن وراء هاته الكلمة الجبارة لا اشك فـى ان الشابـى قد صور مطامحـه واندفاعاتـه كمريض · والغريب اننـى اكتشفت هـذا ، وانا اطالع هاته الايام كتابا قيمـا لحكيم بريطانى ، ترجم الـى الفرنسية ، وعنوانه هـو ايضا « ارادة الحياة » · ولقد ذهب الحكيم الـى تفسير عميق لمعنى هذه الكلمـة الساحرة · وكما ان الشابى تجسم فى شخص « بروميثيوس » فهـو فى دعوة « ارادة الحياة » يتجسم فـى شعب بـاسره ، ويرى ذاتـه المريضة ، تطابق ذات الشعب المريض ، ولكن كلاهما مندفع نحـو الحياة ،نحو كسر القيود ، نحو الوجود الاخصب ·

---

26) أغاني الحياة ، ص ص 167 ـ 170 ، قارن عنوانها بكتـاب :

Dr Arnold A. Hutschneckr : La volonté de vivre.

ترجم من الانقليزية ، باريس 1954

و « مواقف الشابي هذه ، وسيرته هذه (27) التي ربما يبدو للقارىء اننا فسرناها تفسيرا غريبا هي ناتجة عن مرضه ، مرضه المتطور هو ايضا .

ولعل رجاءنا لا يخيب في ان نرى حكيما تونسيا يقوم بدراسة اوفى وبحثا اعمق (28) .

---

27) لقد أظهر الاستاذ مرلو بنتي في كتابه
28) يعتمد ، قبل كل شيء ، على ملفات الحكيم الماطري وكالو ،
Merleau Ponty : Structure du comportement, Paris 1952
العلاقة بين الكيان والسيرة الاجتماعية للفرد .
تلك الملفات التي لم نصل الى معرفة ما فيها ، والتي تجعلنا مرة أخرى ، نؤمل أن يقوم حكيم تونسي بدراستها .

النزعة الأبداعية

يقول الشابي (يوم الثلاثاء 7 جانفي 1930) : « اشعر الآن انني غريب في هذا الوجود ، وانني ما ازداد يوما في هذا العالم الا وازداد غربة بين ابناء الحياة وشعورا بمعاني هاته الغربة الاليمة ، غربة من يطوف مجاهل الارض ويجوب أقاصي المجهول ثم ياتي ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا . غربة الشاعر الذي يستيقظ قلبه في اشجار الحياة ، حينما تضطجع قلوب البشر على اسرة النوم الناعمة ، فاذا جاء الصباح وحدث عن مخاوف الليل واهوال الظلام وحدثهم في اناشيده عن خلجات النجوم وزفرة الاحلام الراقصة بين التلال لم يجد من يفهم لغة قومه ولا من يفقه اغاني روحه .

الآن أدركت اننى غريب بين ابناء بلادى · وليت شعرى هل ياتى ذلك اليوم الذى تعانق فيه احلامى قلوب البشر فترتل اغانى ارواح الشباب المستفيضة وتدرك حنين قلبى واشواقه ادمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد · اما الآن فقد يئست ، اننى طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة ولا يفقهون صورة الحياة الكثيرة التى تتدفق بها موسيقى الوجود فى اناشيده · الآن ايقنت اننى بلبل سماوى قذفت به يد الالوهية فى جحيم الحياة ، فهو يبكى وينتحب بين انصاب جامدة لا تدرك اشواق روحه ولا تسمع انات قلبه الغريب وتلك ماساة قلبى الدامى » ·

فكرة الشابى هذه مستقاة من فيض ينبوع الابداعية الغربية التى تروى بها شاعرنا من خلال جبران ، ومن « رافئيل » للامرتين ، و « ورتر » لقوته الالمانى ، ترجمة الزيات ·· اننى طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه » ، اليست هذه بعينها الفكرة التى تغنى بها « شاعر الهاوية » شارل بودلير ، فى قصيدته القطرس L'albatros

انظر ديوان « زهور الشر » القصيدة السادسة ، ونفس الفكرة التى طرقها فى قصيدة جميلة (ليلة ماى) شاعر الليالى الفريد دى موسى البديعة Le Pelicon كما نجدها فى رسالة لالفريد دى

فيني ، بتاريخ (27 ديسمبر) 1838 ، وفـي قصائد كثير من الشعـراء الابداعيين الغربيين نخص منها قصيدة بيرون: (مانفراد) والمقارنة العميقة بين الشابي وبين سابقيـه تنير لنا ناحية مظلمـة من فن الشابي : كيف طرق شاعر تونس مواضيع قد طرقها غيره من قبل ، في اسلوب كان جديدا عند من لم يعرفوا ادب الغرب ؟ واحيانا عند من عرفـوه ايضا .

والحقيقة ان فكرة الشابي « جبرانية » محضة ... فالشابي ـ انجب تلاميذ جبران ـ نعم . « الشابي تلميذ جبران » لا اكثر ولا اقل ، فمن دراستنا لجبران ولمؤلفات جبران (لجميـع مؤلفاتـه) (1) نخرج بحقيقة ضخمة ، لا يستطيع احـد ان ينكرهـا ، وهي كحد السيف القاطع ! نعم ليس مـن الغريب ان نجد جبران قـد طرق قبل تلميذه الشابي فكرة « وحدة الشاعر » ، وهو موضوع ابداعي اكل الدهر عليه وشرب (2) .

---

(1) انظر « المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران . قدم لها واشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة » 3 ج . مكتبة صادر ، بيروت 1949 ـ 1951 ويجدر بالباحث عن الشابي النظر في كتاب « جبران ، حياته ، موته ، ادبه ، فنه » لميخائيل نعيمة ، مطبعة صادر ، بيروت 1943 .

2) انظر رسالة دكتورار كانا « الشعور بالوحدة النفسانية عنـد الابداعيين واصحاب البرناس » باريس 1904 ـ

Carnat (R), « Le sentiment de la solitude morale chez les romantiques et les Parnasiens » Paris 1904.

يقول جبران ، فى آخر مقطوعة من مقطوعات (العواصف) عنوانها الشاعر » (3) :

«انا غريب فى هذا العالم .

« انا غريب ، وفى الغربة وحدة قاسية ، ووحشة موجعة ، غير انها تجعلنى افكر بوطن سحرى لا اعرفه وتملا احلامى باشباح ارض قصية ما راتها عينى (4) .

« انا غريب عن اهلى وخلانى ، فاذا ما لقيت واحدا منهم اقول فى ذاتى :

« من هذا ؟ وكيف عرفته ، واى ناموس يجمعنى به ، ولماذا اقترب منه واجالسه ؟ .

«انا غريب وقد جبت مشارق الارض ومغاربها فلم اجد مسقط راسى ولا لقيت من يعرفنى ولا من يسمع بى . استيقظ فى الصباح فاجدنى مسجونا فى كهف مظلم تتدلى الافاعى من سقفه ، وتدب الحشرات فى جنباته (5) .

---

3) انظر « المجموعة » ج 3 ص 164 وما بعدها .
4) طرق جبران هذه الفكرة كذلك فى قصيدته «البلاد المحجوبة»
5) تاثر الشابى بهذا المشهد المفزع وطرقه فى قصيدته (يا رفيقى) .

« انا غريب في هذا العالم ·

« انا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي ··· »

وموضوع (ما يسميه الفرنج thème) « الغربة » طرقه الشابي في شعره أكثر من مرة ، وانه يمكن لنا بعد بحث طويل ان نرى في قصائده : « شكوى اليتيم » (اول « قصيدة » نظمها الشابي ، حسب تاريخها) ، و « الدموع » و « الزنبقة الذابلة » و « نظرة في الحياة » و « الحياة » و « انشودة الرعد » و « في سكون الليل » (6) طرقا اوليا يقوم به شاعر في سن الحداثة · ونرى هذه الفكرة او هذا الموضوع ، يتطور بعد سنة 1928 ، في قصائد عديدة ، منها « النبي المجهول (7) · و « مناجاة » ، و « زوبعة في الظلام » (8) ·

ونحن ـ على خلاف ما يراه دارسو الشابي وخاصة كرو ـ نرى في هذه النزعة الجارفة عند الشابي ، وعند كثير من شعراء العروبة منذ مطلع القرن العشرين انعكاسا لافكارهم المضطربة ، ولارواحهم الحائرة امام الوجود ، وما وجودهم الا واقع اجتماعي مر : رجعية

---

6) هذه القصائد تميز الطور الاول من تفكير الشابي الى سنة 1928 « مرجعنا الوحيد : « الادب التونسي في القرن 14 » ص 210 ـ 209 ـ 212 ـ 211 ـ 236 ـ 235 ـ 238 ـ 237 ـ 240 ـ 239 ـ 249 ·

7) العالم الادبي ـ عدد 1 ـ مارس 1930 ، ص 9 ـ 10 ·

8) العالم الادبي ـ عدد 5 ـ جويلية 1930 ، ص 30 ـ العالم الادبي عدد 2 ـ 24 ديسمبر 1934 ـ ص 24 ·

متحجرة تستثمر الشعب باسم الدين والوطن ، وواقع سياسي امر : سيطرة امبراطوريات اجنبية على البلاد . هذه النزعة الجارفة من جبران الى علي طه ، الى فدوى طوقان الى ... نعدها ـ حقيقة ـ هربا من الواقع ، من الحقيقة ، انها تشاؤم اسود امام نظام اجتماعي تاريخي ، ـ معين ـ لم يفهموا تطوره وتدرج تاريخي محتوم لم يدركوا كنهه وسيره .. هذه النزعة ، هي بعينها تلك التي رايناها عند الابداعيين الغربيين عند شاتو بريان ، وعند لامرتين وخاصة موسى ، واخيرا عند بودلار ، وهم يسمونها مرة (9) موجة الاشواق. Vague de passions و (داء العصر) ، مرة اخرى ، Mal du siècle او Spleen (الاشواق المبهمة) اذا تحدثوا عن جيل بودلار .

وهي نزعة بينة عند الشابي وعند كثير (10) . يتسم بها الى يومنا. في بلادنا وفي غير بلادنا نفر غير قليل ، نزعة ما نزال نطالع آثارها على صفحات جرائدنا ومجلاتنا ، تمتاز بالهروبية Evasion من كل مسؤولية ، وباشعار مشوشة ، تتخللها العبارات « الميتافزيقية » لرنانة الفارغة كلها دموع وعواطف ، تناثرت فيها الزهور ... والعطور ... والبخور ... والحرير ... !! .

---

9) طالع دراسة روسيل « الداء الرومانطيقي » باريس 1918 Rosel le mal romantique (R. H. L.) 1918. (مجلة تاريخ الادب الفرنسي)

10) طالع مثلا ديوان المرزوقي « دموع وعواطف » ا . تونس 1940 ومولد النسيان للسعدي .

لنواصل نظرتنا ، باحثين فى يوميات الشابى عن هذه النزعة ٠

ان يوميات الشابى لا تخرجنا بخيبة ، بل تقدم لنا صفحات عديدة، ملاى بنزعة الشابى تلك ٠٠ يقول ابو القاسم الشابى ، فى اول صفحة **يوم الاربعاء 1 جانفى 1930 :**

« ٠٠٠ ثم ها انا انظر فلا اجد شيئا ٠٠٠ لقد ذهبوا كلهم الى عالم الموت البعيد ٠٠٠ لقد احتجبوا عنى حتى الابد وبقيت وحدى فى هذه الحياة ٠٠

٠٠٠ هبنا ادعو فانهم بعيدون عنى لا يسمعون نداء روحى ، ولا صرخات قلبى الغريب ٠٠٠ لقد ذهبوا كلهم وبقيت ها هنا وحدى اناجى وحدتى وانفرادى فى سكون الظلام » ٠

ان فى شعور الشابى تيارا لا شعوريا جارفا ، هنالك ابو القاسم الشابى الذى يجهل الناس وجوده ٠ هو ابو القاسم « المتأنق » ، ٠٠ ذلك الرجل الذى يسميه الغربيون Bandy لقد اصطدمت وانا اطالع يومياته ، بهذه النزعة عند الشابى ، نفس النزعة التى حللها لنا جان بول سارتر فى شخصية شارل بودلار الشاعر الفرنسى (II)

(II) J. P. Sartre Beaudelaire. Paris

يمكن ان نفسر تأنق الشابى كرغبة لا شعورية هدفها ان يشعر الناس ـ من خلال الملبس الشاذ ـ بوجود الشاعر!

واليك نص من يومياته بعثني على ان ارى في الشابي ذلك الـ Dandy .

يقول الشابي بعد مقدمة طويلة **يوم الاحد 26 جانفي 1930 :**

« انني شاعر ، وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف قليلا او كثيرا مذاهب الناس فيها ، وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة احس انا به حين اكون بين الناس ، يجعلني اتتبع سننا ورسوما تحبها نفسي ، وربما لايحبها الناس وافعل افعالا قد لايرونها شيئا محبوبا، والبس البسة يعدها الناس شاذة عن مالوفاتهم . انا شاعر ، والشاعر عبد نفسه وعبد ما توحي اليه الحياة لا ما يوحي اليه البشر » .

ونزعة الشابي هذه تجعل منه شاعرا فرديا ، فهو بعيد عن النزعة الجماعية . اول خطوة في طريق الوطنية القومية تلك النزعة التي نجدها في اجلى مظاهرها عند كاتب كبير مثل موريس باريس M. Barres وشعراء امثال شارل بيغي Ch. Peguy او لويس اراغون L. Eragon

* * *

يجب ان تقف طويلا امام الشابي « المتانق » فهذه ناحية تبدو لنا شديدة الاهمية بالنسبة لابي القاسم الشابي ، (لا اننا اول من اكتشفها والفضل يعود الى « يومياته » والى معرفة عندنا بالآداب

الاجنبية والفرنسية خاصة) ولكن لانها حقيقة جوهرية تكشف لنا نواحى مظلمة جهلناها من شخصية هذا الشاعر الذى يتطلع الفكر العربى اليه بفارغ صبر ...

فالام يعود هذا التانق ، وما هو مصدره يا ترى ؟

قلت ان الشابى ـ لم يكن يفهم « الحالة » Situation ، التى وجد نفسه فيها، ولم يكن يدرك ان هنالك تطورا تاريخيا محتوما، وان بلاده تعيش فى نظام تاريخى معين ، من انها مثلا ، مصدر لنزاع بين الدول الكبيرة الغربية ـ او ان هنالك ازمة اقتصادية عالمية مصدرها التطاحن فى سبيل الاسواق التجارية ، ولم يدرك ان المجتمع كان يقوم على نظام جائر .

فنحن لم نر الشابى يثور على النظام القائم كما ثار جبران فى (صراخ القبور) (12) ، ولم يثر كذلك على الوضعية الدامية ، على الماساة التى تتخبط « المراة » فيها فى مجتمع رجعى متحجر ، كما فعل جبران فى (مضجع العروس) (13) ، ولم نسمع من الشابى تلك النغمة القوية المتشبعة بروح الانسانية الصاعدة المتحررة ، لم نر منه تلك الثورة (الجبرانية) على المواضيع الاجتماعية ، فهو فى

12) « المجموعة » ج 1 ـ ص 127 ـ 139
13) « المجموعة » ج 1 ص 140 ـ 151

الحقيقة لم يعرف الحاجة يوما من حياته ـ كما عرفها جبران مثلا ـ ولكن ابا القاسم الشابى كان ذا فقر وهمى Mythe وهو الباعث الاكبر على اهماله القضايا الاجتماعية ·

وهو كذلك لم يتعرض للمراة كما تعرض اليها الطاهر الحداد(14) فهو أقل وعيا من الحداد · وان لم يثر ، فلأنه لا يستطيع أن ينور على الطبقة التى يؤمن بمبادئها ويخضع لتقاليدها ! وهو لم يصل الى ادراك بين للحالة الاجتماعية والسياسية التى يعيش فيها ، الى ذلك الشعور الكامل الذى يسميه الفرنج Prise de Conscience بدرك بفضله الحالة « الحقيقية » التى عليها المجتمع ·

وعدم ادراكه ـ النفسانى ـ والعقلى هو فى نظرنا قطب رحى نزعته تلك · فكما « ان تأنق بودلار ـ (كما يقول جان بول ساتر) (15) ـ رد فعل فردى لحالة الكاتب الاجتماعية ومشكلاته » فكذلك نزعة الشابى هذه ، رد فعل منه امام حالته الاجتماعية ومشكلاته · وهو رد فعل لاشعورى يتسم بحالات نفسانية عديدة ـ ضجر ، تشاؤم ، اسى ، ··· عبر عنها الشابى فقال انه: «الشقى الذى ضاقت به رقعة

---

14) انظر الطاهر الحداد « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » تونس 1930

Sartre, Baudelaire Paris

15) ص 158 وما بعدها ، 173 وما بعدها ·

الفضاء المترامي،فهو كما يقول بودلار،يود ان يكون «في كل مكان... سوى الارض» (16) ، ولكنه من جهة اخرى يود من الناس ان يعترفوا بنبوغه ، ويعلنوا عبقريته ويقدموا ذكره ، ... ويريد بواسطة ملبسه الشاذ ـ ان يشعرهم بانه شاعر ، وبانه جدير بان ينظر اليه . بل ملبسه الشاذ صرخةفي وعيهم تبعثهم على الاستغراب والتساؤل... ولعل نزعته هذه نتيجة لمرض قلبه .

ولقد اكتشف الاطباء الاختصاصيون في أمراض العقل ـ الباطني وغير الباطني ـ العلاقة الوثيقة بين نزعات الادباء وامراض الجسد (17) .

وعلى كل فنزعة الشابي « المتأنق » تبدو عقدة تؤلفها تيارات لا شعورية من العويص اكتشافها ـ في حالة تنقصنا الوثائق والبراهين عليها ـ .

قلنا ـ قد يكون مرض الشابي دافعا من الدوافع لشذوذ ملبسه . وقد راينا اكثر من مرة عند الادباء المرض الفيزيولوجي يستحيل

---

16) Baudelaire, Spleen de Paris, (Any where, out in the world)

17) انظر Claude (Henri), Psychiatre, 2e Ed., Paris 1944
ص 185 ـ 191 ، ص 136 و 238 ـ 159 وكذلك
Ch. Baudoin, Psychanalysme de l'art. Paris 1920 (Alcau)
الفصل الاول و ص 88 وما بعدها

الى عقدة نفسانية يصعب فهمها اول الامر ، فالدوعاجى مثلا ، كان يعيش فى ازمة نفسانية سببها مرض السل الذى اصابه . وكذلك بودلار . كذلك عدد كبير من الابداعيين الغربيين (18) .

ويجدر بنا ، ان نقدم ـ عن مرض الشابى ـ صورة نستمدها من **يومياته** : يقول الشابى **يوم الثلاثاء 14 جانفى 1930** : « اشعر اليوم بفتور فى بدنى ، وتوعك فى مزاجى ، لا أدرى مأتاه ، وأحس بكئابة عميقة تستحوذ على مشاعرى ، وتقبض على قلبى ،وتجعلنى اكره الكتب والاسفار والمحابر والاقلام ، لا اريد ان ازيد اكثر مما ذكرت لاننى ارى النوم يغالبنى ، والاعياء يدفعنى الى النعاس » .

وكذلك يقول فى **يوم الخميس 16 جانفى 1930** ، « اعتزمت الذهاب الى حديقة « البلفيدير » صحبة رفيق لى ، فبريت القلم واعددت القرطاس، وتأبطت كتابا عسىأن أخط ما تحدثنى به النفس من افكار او ما يفيض به القلب منعواطف لاننى لا أعلم متى تطغى على الخواطر وتزدحم على الذكرى وتنهال على الافكار انهيالا .

... كنا نسير بين المزارع التى تداعب الشمس أعشابها وكانت

---

(18) انظر

P. van t'eghem. L'ère romantique, I Le romantisme dans la littérature européenne - Paris 1948) coll. Evol. Huma)

ص 245 وما بعدها ، خاصة ص 247 ـ 256 و ص 281 ـ 283 .

مشاهد كثيرة متباينة : هاهنا صبية يلعبون بين الحقول ، وهناك طائفة من الشباب الزيتونى والمدرسى يتريضون فى الهواء الطلق والسهل الجميل ، ومن لى بان اكون مثلهم ، انى لى ذلك ، والطبيب يحذر على ذلك ، لأن بقلبى ضعفا! آه يا قلبى! (19) انت مبعث آلامى ومستودع أحزانى وانت ظلمة الاسى التى تطغى على حياتى المعنوية والخارجية » .

أليست هذه هى الحالة التى يسميها علماء النفس Complexe

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

---

19) طرق الشابى هذا الموضوع فى قصيدته « يا قلبى »

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الحركة الثقافية في تونس عام 1930

وتمكننا يوميات الشابي من اكتشاف حقيقة الحركة الثقافية وديناميكيتها ، وقد اخذ الفكر التونسي ، بعد عصور الجمود والتقهقر ينطلق انطلاقته الحالية .

واحسن مثال على هذه الحركة ، ما جاء في يومياته :

يوم الاربعاء 5 فيفري 1930 :

« ذهبت الى « القدماء » (الصادقية) صحبة بعض الرفاق الادباء فوجدت هناك طائفة من الاخوان الادباء واخذنا نتجاذب الحديث عن تلك المعركة التي حمي وطيسها ليلة امس . وحدثنا الاخ عثمان الكعاك عن المواضيع التي عينتها كلية الآداب بفرنسا لمن يريدون

الاحراز على شهادة التبريز « اقريقاسيون » فى الآداب العربية ومن بينها :

1 ـ الشعر الغرامى فى الادب الجاهلى ، وما هى ميزاته وخصائصه ؟ .

2 ـ خصومة القدماء والمحدثين فى القرن الثالث الهجرى .

3 ـ انواع الحيوانات الوحشية التى وردت فى الشعر الجاهلى

4 ـ كثير عزة .

5 ـ مؤرخوا الاسلام ، ومذاهبهم فى التاريخ ، ومواردهم .

وقال : « لو كنت اطلعت على هاته المواضيع قبل رمضان لكنت اقترحت ان تكون من بينها مسامراتنا » .

ثم قال :

ـ « وما رايكم ، لو توزعنا هذه الابحاث فيما بيننا ، على ان نلقيها فى مسامرات بعد رمضان ؟ فوافق الجماعة على ذلك .

واخذ الاخ محمد صالح المهيدى « الخصومة الادبية بين القدماء والمحدثين فى القرن الثالث الهجرى » واخذ الاخ عثمان الكعاك « انواع الحيوانات الوحشية التى وردت فى الشعر الجاهلى »

واقترحوا على ان اتحدث عن « الشعر الغرامى فى الادب الجاهلى

وما هي ميزاته وخصائصه » . فاخذته بعد ممانعة والحاح ، لا ادرى هل ابر بوعدى فيه ام لا ، لان الاشغال الكثيرة التى ملات كل وقتى فى هذا العام لا احسبها تترك لـى فرصـة البحث والدرس ، وتكون فكرة جازمة فى هذا الموضوع » .

هكذا ندرك ان هذا الاشعاع الفكرى الذى اختصت به كلية الآداب الباريسية ، وابناؤها المكافحون فى التحصيل على التبريز ، لم يقف على حدود مدينـة الانـوار ، بل تجاوزها الى تونس ، والـى عـالم الزيتونيين ، وهذه الحركة ، او هذه اليقظة الفكرية ، لم نكن لنشعر بحقيقة وجودها ، لولا هذه السطور القليلة من يوميات الشابى .

واقول حركة ، وحركة ناشطة ، لانها عرفت كيف تجعل من سهرات شهر رمضان مسرحا لحركة ادبية حية ولمحاضرات ممتعة ...

وانت لو قارنت مثلا رمضان سنة 1930 ، الذى عاشه الشابـى ، ورمضان الذى عشناه السنة الماضية ـ من زاوية الحيـاة الادبيـة ـ لادركت حقيقة ان ذلك العصر لم يكن باقل نشاطـا من عصرنا نحن ، بل تعداه حركة ويقظة فكريـة .

ونستخلص امرا ثالثا من هذه الصفحة من يوميات شاعرنا ، وهو امتـزاج العنصر الزيتونـى بالعنصر المدرسى او الجامعى ، الـذى

- اخذ بيد العناصر التقليدية حاول ان يسير واياها الى مستوى ارفع للثقافة التونسية المعاصرة .

وهذا الامتزاج بين عنصرين فتيين ، لم يكن بينهما اتفاق عميق ولا تفاهم خصب .

وهذا اللقاء وهذا التمازج وقع فى اطار النادى الادبى لقدماء الصادقية .

* * *

ونريد ان نتبع ابا القاسم الشابى فى سهرته ، وقد قضى الثلث الاول من ليلته ... فاين ذهب يا ترى بعد خروجه من نادى قدماء الصادقية ؟ لنستمع اليه ، وهو يقول فى يومياته :

« الى هنا ينتهى الثلث الاول من سهرة الليلة . اما الثلث الثانى ، فقد صرفناه فى محل « جمعية التمثيل العربى » حيث يتمرن الممثلون بهاته الفرقة على استظهار ادوارهم » .

ندخل مع شاعرنا ، الوسط التمثيلى ، بما فيه من خير وشر ، من ارواح قبيحة وارواح نبيلة ...

ولا بد ان نتمادى مع الشابى فى سهرته او على الاصح ، الجزء

الاخير من سهرته . فهو قد استرسل ايضا ، همه الادب والحديث عنه .

« الى هنا ينتهى الثلث الثانى من سهرة الليلة ، ثم غادرنا المحل الى منتدى آخر ، الفنا ان نجتمع به ببعض رفاقنا وان نقضى فيه شطرا من الليل فى حديث ادبى اجتماعى سياسى وعلمى من كل لون وطبق » .

وهذا الجو الادبى الرائع ، نصادفه اكثر من مرة فى يوميات الشاعر ، وكان الشابى لا يعمل ـ حتى وهو فى الادارة العدلية ـ الا والادب فى عقله الشغل الشاغل . فنحن نكتشف امتلاك الادب لشخص الشابى ، فى يوم 25 جانفى ، اذ يقول :

« خرجت اليوم من ادارة العدلية قبل الوقت الذى الفت ان اخرج فيه ، وذلك لكى اذهب الى الاخ زين العابدين السنوسى واسلمه مقال الاخ الجليوى الذى ضمنه نقدا على بعض آرائى الواردة فى (الخيال الشعرى عند العرب) .

دخلت المطبعة فاذا به يصحح مسودات مجلة « العالم الادبى » وبازائه الاخ مصطفى خريف يتصفح مجموعة «السياسة الاسبوعية»(1) وقلت :

1) انظر فصل « الطبيعة والادباء » هـ . 4 .

ـ « السلام عليكم ! » .

فقالوا :

ـ « وعليك السلام ! »

ثم اخذنا فى حديث مختلف الالوان والمطاعم ... »

ونعود مع الشابى ، فى يوم 27 جانفى الى نادى قدماء الصادقية والى مشكلة من اهم مشاكل الحياة الادبية فى تونس : كيف يمكن ان تعيش المشاريع الادبية ... وقد راينا فيما مضى ان ذلك العصر بالنسبة لعصرنا نحن قد يعد اكثر نشاطا ، ولكنك تصطدم احيانا بالخيبة والفشل وتطالع موت الحركة الادبية :

« ذهبت عشية اليوم الى « النادى الادبى » ، بجمعية قدماء الصادقية، اذ كان يوم الاثنين ، وهو موعد اجتماع النادى ولكن ... وجدته مقفلا ، رغم ان الموعد الخامسة والنصف .

ورغم صفعة الاسبوع الماضى التى تلقتنا بها ابواب النادى المقفلة فقد عدت مرة ثانية (بعد ربع ساعة) (2) .

---

2) هذه الكلمات محاها الشابى ولكن تمكنا من قراءتها .

لقد اصبحت يائسا من المشاريع التونسية، ناقما على التونسيين لاننى اراهم يقولون كثيرا ولا يعملون الا قليلا · ولانى اراهم نبغاء فى بسط آرائهم ونظرياتهم والتحمس لها ، لقد يدفعك ذلك الى ان تؤمل الآمال الكبار ، وتعتقد انك تخاطب روحا متجسدة فى فكرة تلتهب ، حتى اذا جاء دور العمل تمزقت تلك البراقع وخمدت النزوات وتكشف البراقع عن وجه الحقيقة الاربد وانجاف طلاء الشباب ونضارة الفتوة المستعارة من تجعدات الشيخوخة وقبول الخمول ·

ان التونسيين الآن من ذوى النظريات الفسيحة ولكنهم يدورون فى منطقة ضيقة من الاعمال لا تنم بشىء ·

حدث عن الشباب التونسى ، فانك لا تلقى الا حماسا وعزما ومشاريع ولكن ثق انك حين تدعوه للعمل فلا تجد الا عزائم خابية وشبابا هرما يغط فى سبات الاحلام اللذيذة ··· »

ولا بد ان نفسر هذا الحكم القاسى ، وهذه الحسرة الدامية التى تتصاعد من انفاس الشابى ·

قلنا ان الشابى كان يشعر ان نهضة فكرية اخذت تدخل على الوسط الادبى التونسى ··· فهو يقول فى يومياته :

يوم الاثنين 7 جانفى :

« كنا جلوسا بقاعة المطالعة بجمعية قدماء الصادقية · وكان الحديث يدور حول يوسف المحجوب واخلاله بالوعد الذى ضربه للناس فى انه سيلقى مسامرته بالنادى الادبى عن « برغسون ، الروح والجسد » ·

ثم يتعرض الشابى الى نشاط الاستاذ زين العابدين السنوسى ثم الى الجائزة التى اسسها الشيخ حموده بوسن باسم « جائزة بوسن الادبية » وقدرها 3،000 فرنك ! ··· ويقول بعد ذلك :

« ثم افترقنا ، ونفسى تفكر بالاوساط التونسية فاذا بى لا التفت الى كل ناحية من نواحى الحياة التونسية الا واجد نشاطا وحركة ونهوضا مما يبشر اننا فى عصر انتقال وتطور ، ستشمل بركته كل ضروب الحياة فى تونس ·

حقق الله الامل فقد طال هذا الظلام » ···

وبعد عشرين يوما يصطدم الشابى بخيبة امله ··· وتراه يكتشف ان الادب يحتاج الى تضحية واخلاص مستمرين ·

وتستطيع ان تحصر حركة الشابى ونشاطه فى حدود المدينة الاسلامية ، او فى اطار البيئة الزيتونية (3) ·

---

3) انظر بحثنا الطويل

Le milieu zitounien de 1920 à 1933 et la formation d'Abou-l-Kasim us-Shabbi 1965 فى Cahiers de Tunisie 1960

ولا شك ان يومياته من هذه الناحية ، هامة وهامة جدا ·· فانك تكتشف الاماكن التي كان الشابي يتردد عليها ···

الجامعة الزيتونية ·

ادارة العدلية : دروس الحقوق ·

النادى الادبى لقدماء الصادقية ·

مطبعة العرب ومجلة العالم الادبى ·

وهى اهم اماكن النشاط الادبـــى ·

اما عند المطبعة ومجلة العالم الادبى ، فهـو قد احتفظ لنا ببعض زياراته لها **يوم الاثنين 20 جانفى :**

« بعد ان انهيت اعمالى الادارية نحو الساعة الخامسة ذهبت انـــا والاخ المهيدى الى مطبعة الاخ زين العابدين ، فالفيناه يصفف حروف « العالم » مع المصففين ، والفينا الاخ مصطفى خريف واقفا بجواره يطالع بعض الشىء ·

بعد حديث مختلف ارانى الاخ زين العابدين مقالتى « الشعر ماذا يجب ان نفهم منه ، وما هو مقياسه الصحيح » · ثم لاحظ لـى انـه يخالفنى فى بعض ما ورد بالمقال من الآراء وانه يود لو قابلنى قبـل طبعه ليعرض على رايه عسى ان يدخل به تعديلا على المقال ·

ثم قال: « ولكن وجود بعض ما يخالف رايي لا يمنعني من نشره اذ ان مسؤولية ما فيه من الافكار محمولة عليك وحدك » .

فاجبته بالايجاب . ثم ثبت له ان ما يلاحظه على المقال ويود وجوده في المقال هو وجود فيه . واردت ان اريه اياه ، فلم اتمكن من ذلك لكثرة أعماله ، ووفرة حركاته ، ثم قال لي :

ـ « انك تريد ان تبعث المذهب الرمزي « سمبوليزم » من مرقده ، وهو مذهب قضى عليه الزمن ولم يتبعه في فرنسا الا شاعران او ثلاثة . » .

فقلت له :

ـ لك ان تسمي طريقتي بالاسماء التي تشاء ، فانا لا اعرف كيف اسمي ولا يهمني معرفة اسمائها وسواء علي اكانت تسميتها كما قلت ام خلافا له ، وانما الذي يهمني والذي اود ان تعرفه هو ان ادعو الى الطريقة التي تسكن اليها نفسي ويرتضيها ضميري ما استطعت الى الدعوة سبيلا . » .

* * *

ونسترسل مع ابي القاسم في تفكيره الدائب ، واندفاعه المستمر ، مع حركة ناشطة عاشت كالنور الوضاء .

وينتقل من جديد الى « النادى الادبى » ، وكأننا نشاهده فى خيالنا وهو يمر بنهج الآغا ، وبطحاء رمضان باى وكأننا نراه يصعد الدرج المؤدى الى شارع دار الجلد ، فيصعد عقبة النهج ويدخل نادى قدماء الصادقية مصاحبا ... وكأننا نشعر ، بعد العمل المثمر وبعد الحمى الفكرية التى تستولى على الانسان وهو فى عمل جدى مستمر ـ خاصة وهو فى المطبعة ـ ان البيئة لم تكن لتوافق نشاط شاعرنا وعصابته :

« وبعد قليل ، اصطحبت الاخ مهيدى والاخ خريف ، بعد ان اعتذر الاخ الزين عن الذهاب معنا الى « النادى الادبى » ، لتراكم العمل عليه ولما وصلنا اليه ، الفيناه مغلقا مع ان موعد الاجتماع قد مر عليه نحو العشر دقائق .

وبعد ان قرعت الباب قرعا عنيفا بدون جدوى ، رجعنا وفى انفسنا حسرة واسى على المشاريع التونسية المسكينة التى لا تجد من ابناء تونس من يخلص لها حتى النهاية .. » .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

معركة القدماء والمحدثين

ولكن الم الشابى اشد ، بالصدمات التى صودم بها فى حركته الادبية ، فى نشاطه ونشاط عصبة العالم الادبى ، تلك الجماعة التى اسميها بالمحدثين ، لان حركتها كانت تهدف الى الاصلاح والتجديد بينما حاول الشق المعارض لها البقاء فى جموده ، والالتجاء الى قيم الماضى البالية ومعنوياته ، وكان محور المعركة ، المحاضرات الادبية ذات الاسلوب المتحرر ، وذات النزعات التقدمية التى كان يلقيها الشابى واصحابه ... ونجد عنها صدى فى يومياته : **يوم الاثنين 20 جانفى** ، يقول :

« لقد حاولنا فى العام المنصرم ان ننظم سيره (1) سيرا تاما .

---

1) يعنى سير (النادى الادبى) .

رغم المعارضة الكبرى من انصار الاساليب القديمة فانتج انتاجا حسنا كان فوق ما يؤمل منه ثم قامت ضجة « الاب سلام » اثر ضجة « مسامرة امرىء القيس » التى انكر فيها الاخ المهيدى وجود امرىء القيس · ومسامرة « الخيال الشعرى عند العرب » التى جاهرت فيها باراء لم تسغها افكار بعض ادعياء الادب وعدوها ثورة على الآداب العربية وجحودا لمزايا العرب · وتطورت هاته الفكرة فى نفوس الناس وانبعثت حولها الاراجيف والاشاعات الكاذبة حتى عدها بعض الجهلة زندقة وكفرا !!

قامت تلك الضجة حول المسامرات الثلاث وحول مسامرة « (الاب) سلام » بالاخص · فاقتبلها بعض المغرضين فرصة لتشويه سمعة النادى ورميه بالزيغ والالحاد ، والى آخر تلك السهام التى تعلم المفسدون تسديدها الى كل عمل راموا احباطه فى البلاد الاسلامية · فكانت تلك الحملات الكبرى قاضية على حركات النادى قضاء ما كنت اتصوره ·

فقد فتتت تلك الحملات بين اعضاد الاكثرية من اعضائه وردت فى قلوبهم الرعب والهلع والجبن ، فانقطعوا عن المجىء اليه الا واحدا او اثنين كانت لهم عزيمة صادقة وشجاعة تحتقر صيحات الحروب وتهزا بسهام المغرضين ··· ولكنهما اعرضا عن الذهاب اليه ···

ثم جاءت السنة الحالية ... تعرضت لنقد كتاب « الادب العربى فى المغرب الاقصى »، وفى اخرى تعرضت لطريقة البحث فى الثقافة الشرقية عند المستشرقين والمسلمين فى الوقت ، وقد اغضبت كل منهما طائفة من الناس . » .

عند هذه النقطة الا نتمنى حقا ان تطبع آثار الشابى حتى نعلم بالضبط الآراء التى تعرض اليها شاعرنا ، ونعلم علما يقينا الاسباب التى بعثت « الجهلة » على ان يقوموا ضد شاعرنا بحملة معادية مغرضة فتت من عزيمته ، واضرت به ، كما اينا من بحث « مرض الشابى من خلال بومياته » . وهل يستقيم لنا دونها البحث الادبى ، والنظر العلمى ؟ .. واين هى يا ترى هذه الآثار التى لم نسمع بها، لو لا يومياته ؟ .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

من مظاهر التجديد

كان ذلك المجتمع الادبى التونسى يعيش ثورة فكرية ، لان افكارا جديدة وآراء خارجة عن عالمه المألوف تسربت اليه ٠٠ لقد كان كل شىء يشير الى التجدد ، الـى هزة عنيفـة بدات تعمل فى كيان الفكر التونسى ، الذى عاش منذ القرن العاشر ازمة رهيبة ادت به الى الجمود ثم الى التقهقر ثم الى الموت ٠ فكانت عجلة التاريخ تدور فى الفـراغ المهول ٠٠٠ وكنـت لا ترى انتاجـا اصيلا بل شروحـا على تفـاسير ، وتفاسير على شروح وشروحا اخرى على الهامش ، حتى ان الباحث لتكوين الشابى وتكوين الطلبة الزيتونيين في عصره ، ليقف مدهوشا امام المجهودات الجبارة التى كانت تبذل ٠٠٠ فـى الفراغ العقيم ٠ ولكن التيار الادبي ، التجديدى ، تيـار الادب العربى المعاصـر

الذى تسرب الى تونس من الشرق ، احدث رجة حيوية ، فشعر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة والمدرسة المهجرية كلها ، ومقالات وآراء طه حسين ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد، والمازنى ، وميخائيل نعيمة وحتى الرافعى ، كلها كانت دعوة للتحرر من الماضى ومن العقلية القديمة .

وكان الادب التونسى يحاول ان يجد لنفسه مقاييس ومعيارات جديدة . وعن هذه المقاييس ، نجد فى يومياته صفحة لا تخلو من دلالة على هذه العقلية المتجددة الباحثة عن الجديد وعن تحديد لكلمة Nouvelle ، الدخيلة ...

يقول ابو القاسم فى يوم الاثنين 17 جانفى 1930 :

« ذهبت انا والاخ زين العابدين والاخ مصطفى خريف مساء اليوم الى النادى الادبى لالقاء محاضرتى عن كتاب « الادب العربى فى المغرب الاقصى » الذى طلب منى النادى الادبى ان ابسط لهم رايى فيه . ولكننا لم نجد احدا هناك بمجلسنا ، واخذ الاخ زين العابدين يتلو علينا اقصوصة الحبيبة او « احدوثة » الحبيبة كما يريد ان يسميها الاخ عثمان الكعاك لانه يرى كلمة « احدوثة » ادق ترجمة لكلمة «نوفائل» الفرنسية واحدوثة الحبيبة هاته، قصة قصيرة كتبها الاخ زين العابدين بمشاركة شخص ابى ان يسميه واعدها للعدد الثانى

من مجلة « العالم » ، وهى قصة تونسية حاول فيها بحث بعض الاوهام الخرافية التى تستحوذ على عقول العذارى الشابات واستعمل فيها طائفة من التعابير التونسية الخالصة التى تاباها العربية ولكنها لا تاباها قواعدها .

وفى اثناء تلاوة الاحدوثة ، اقبل الاخ المهدى ورفيق له . وبعدها اقبل الاديب ابو الحسن بن شعبان ، وكانت الاحدوثة موشكة على الانتهاء .

وظل الاخ زين العابدين يتلوها الى ان انتهت فى هاته الجملة :

« وظلت امى حلومة تشمر على ساعديها وتضحك الى اذنيها » .

وعلى اثرها ، دار الحديث حول الروايات الشعبية والادب المحلى كما انها يجب ان تمثل حياة الشعب بما فيها من عادات وطباع واخلاق ومميزات،فانها يجب ان تشتمل على كثير من تعابيره الفنية الدقيقة، وتركيبه ومعانيه التى يستعملها فى مخاطبته لان هاته اهم ناحية حية من نواحى الحياة الشعبية ففيها تبدو صور صادقة من نفسية الشعب التى تنم عنها فلتات قوله والتفاتات ذهنه .

فقلت له « انى اقرك على رايك هذا ، ولكن على شرط ان لا يتسفل الاديب للتحصيل على هاته الغاية الى ان يمزج اسلوبه العربى بالاسلوب العامى المحرف كما يفعل بعض المصريين اليوم .فان

مثل هاته الطريقة السيئة القاضية على الادب العربى الجميل ، وما سنمته الى نوع الادب الهجين،لا هو بالعربى البليغ،ولا هو بالعامى الصميم وانما هو مسخ بين الاثنين وانما على الاديب الشعبى الذى يريد ان يكون موفقا ، ان يخضع اللغة العربية واساليبها لاحتمال المعانى الشعبية التى تحمل طابع الشعب وميسمه ، وبذلك تكون اللغة قد اكتسبت ثورة معنوية طارفة تضيفها الى ما لها من كنز تليد ، او يدخل تعابير شعبية فى اللغة العربية على شرط ان لا تخل بروح العربية ولا بقواعدها الاصيلة وبذلك يكون الاديب مخلصا للغة العربيه ومخلصا لفنه النزيه .

فقال الاخ الزين : « نعم ! انها لفكرة قيمة وهذا ما حاولت انا اتباعه فى احدوثة الحبيبة فان كلمة « ضحكت الى اذنيها » ، كلمة محلية محضة لا تعرفها العربية من قبل ، ولكنها مع ذلك لا تنافى شيئا من ضوابط اللغة ، زيادة عما فيها من دقة التصوير لمعنى الضحك والاغراب فيه ، ولا اعرف فى العربية تعبيرا ايضا يضاهى هذا فى دقة التصوير لمعنى الضحك والاغراق فيه ، الا اننى اعرف فى الارنسية تعبيرا قريبا من تعبيرنا فى هاته الدقة الا انه دونه وهو قولهم : « ضحك حتى افطس انفه » . (1) .

---

(1) لا يقول الفرنسى هذا التعبير وانما يقول حرفيا « ضحك الى الاذنين » وهو تعبير فرنسى محض ولقد اخذته اللهجة التونسية عن الفرنسية .

فقال الاخ ابراهيم بورقعة : ـ « ان العرب يقولون : ضحك ملء شدقيه ، وهو تعبير غير ظاهر المعنى لان الضاحك لا يمتلىء شدقاه » . فاجابه ابو الحسن بن شعبان، بان كيفية الضحك تختلف باختلاف الوجوه والاشكال . وظاهرته انا على ذلك والذى يبدو لى الآن ، ان العرب لا يعنون بامتلاء الشدقين « انتفاخهما » وانما يريدون امتلاء الفم بصوت القهقهة كناية على قوة الضحك ...

ثم قلت ان العرب يقولون : « ضحك حتى بدت نواذجه » وهو تعبير قريب من تعبيرنا لان النواذج قريبة من الآذان .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

بين الأدب الشعبي والأدب الفصيح

ولقد راينا ، فيما مضى ، محاولة التجديد ، ومحاولة اكتساب مقاييس جديدة ، او بعث عبارات واسلوب جديد فى التعبير .

وكما راينا المحدثين ، يحاولون التجديد فى الحقل المنهجى فهم ايضا سيحاولون ان يكسبوا الادب العربى المعاصر تجربة جديدة ، ودما فتيا ، ملتجئين الى الادب الشعبى الذى يمكن ان يغذى قوالب الادب العربى الجامدة بماء الحياة . وهذه التجربة غير بعيدة بالمرة ، عن تجربة او محاولة التجديد فى فهم الادب العربى التى قام بها الشابى فى محاضراته ، خاصة فى معركة « الخيال الشعرى عند العرب » .

... « ثم انتقل الحديث الى الادب العامى ، فقال زين العابدين

ـ «ان فى ادبنا العامى دقة فى التعبير وجمالا فى التصوير وسعة فى الخيال بصورة توجب الاعجاب الكبير ·

اذكر اننى طالعت انا وابو القاسم قطعة من هذا الفن يصف فيها صاحبها البرق فاعجبنا به اعجابا كبيرا اذ انه قد عبر بها عنه بابرع ما عبرت عنه الفاظ شاعر وابرع ما صورته نفس فنان » ·

فقال ابو رقعة : ـ « انى اعتقد ان الادب العامى بتونس ابلغ من الادب العربى بها وذلك لان ادباء العربية بها تقيدهم كثير من التقاييد اللغوية والاغلال الشعرية التى توجب عليهم احتذاء من تقدمهم من الشعراء زيادة على انهم يكتبون بلغة ليست لغتهم بخلاف من كانوا من قادة الادب العامى فانهم بعيدون عن مثل ما يتقيد به الادب العربى بتونس ، ولذلك يكون من الفرق بين ادب هذا وذاك ما بين ادب الطبع وادب التقاليد » ·

واشعر بان المدرسة الرومانطيقية التونسية هى ايضا ذهبت الى هذا النبوع الثرى الذى ابى أن ينهل منه ادباء العروبة فى عصور الجمود والانحطاط ·

او ليس عجيبا حقا ان نجد ، ـ دون ان يمكننا ضبط انتقال

التأثير وهو اهم امر فى الادب المقارن ـ نفس الفكرة التى دعا اليها الابداعيون الاروبيـون ، وهى الرجوع الـى ينبوع الادب الشعبى ، ذلك الادب الذى غذىقرائح جورج صوند فىميدانالرواية القصصية رشوبان ، الموسيقار العبقرى ، الذى اثار حماس اروبا بمقطوعاته المعروفة **بالبولونيـات** .

بل يذهب الشابى واصدقاؤه الى اكثر من هذا ، فهم يعتقدون ان الادب الشعبى ، يسـاوى الادب الكلاسيكـى ، ان لم يفتـه جمالا وحيوية ... يقول الشابى فى نفس الفقرة :

« وانا اعرف واحدا من هؤلاء الذين بروح الشعب ولغته يعمد الى القطعة من الادب العامى ينقدها نقدا فنيـا صحيحا دقيقـا لوكسى الاسلوب العربى لكان خير امثلة النقد الادبى اذ فيه تتجـلى سلامة الطبع ورقة الحاسة الفنية » .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

الوسط الفني

ولئن راينا نقمة المجددين على السياسة والسياسيين فان نقمتهم لم تكن اقل هولا وشدة على انصاف الادباء والمدعين للادب ... وهذه العاطفة ، شارك الشابي فيها اصدقاء ورفاق ، وهو في يوم السبت 5 جانفي 1930 : يحدثنا عن احدهم كان يحدثه :

« وفي لهجة ملؤها السخرية اخذ يحدثني صاحبي عن طائفة اخرى من الناس هي هاته الطائفة التي تدعي لنفسها الادب وتزعم انها خلقت لقيادة الافكار ثم هي مع ذلك تتخذ من مواهبها بخورا تحرقه امام العاهرات .

وهكذا تحيا تلك المهزلة البشرية التي تضحك وتبكي في آن واحد » .

وينتقل الشابى بعد ذلك الى موضوع من اهم مواضيع الادب الابداعى ، وهو موضوع « كرامة الفنان وعزته » امام المجتمع ، ذلك الموضوع الذى حلله كما راينا الفريد دى فينى ... يقول الشابى ، وقد حز فى نفسه وهو « النبى المجهول » الذى ذهب للغابات ليحيا بطهر وقدس ، (اعنى سار سيرة رومنطيقية محضة) ان يحيا حياة المتذللين ، وان يضحى الفنان بفنه ، والشاعر بشعره ، فى سبيل العاهرات (1) « الكرامة والعزة التى هى ذخر الانسانية الثمين ، والتى يحتاج اليها الاديب والفنان اكثر من كل انسان ، لانها هى التى تخلق فى نفسه تلك النزعة الاستقلالية المنتجة ، تلك النزعة التى تجعله اكثر شعورا بنفسه واعتزازا بها مما عداه ، وبذلك تكسب شخصيته الوضوح والجلاء فى آثاره وتتخذ لها مسلك خاصا بين المسالك ومذهبا لها بين مذاهب الحياة ، والتماس هاته الحقيقة لا يكلفنا عناء فى البحث . فان اكبر الشخصيات فى عالم الادب والفنون ، انما هى تلك الرؤوس الكبيرة التى تعتز بما لها من مواهب ، وبما عندها من شعور ، والتى تشعر بان لها كيانا مستقلا لا يمكن ان ينهدم فى سواها ، وانها عزة لا ينبغى ان تهان ، فى حين

---

1) انى أوافق على رأيه ، لكن لا بد أن نتجاوزه ونفهم أن « الكبت » الجنسى الذى أحاط بحياة الادباء وهو الذى دفع بالشعراء ، لا أن يضحوا بكرامتهم بل أن يختلطوا بهاته النساء التى يعدهن الوسط جوارى « ساقطات »

ان اصغرها فى تلك التى يضعف شعورها بنفسها ، وبما لها من عزة وكرامة فيزج بنفسها فى سبيل المهانة والذل والتقليد ، ولا تشق لنفسها سبيلا بكرا لمجد الحياة ·

فالمتنبى قد كان عزيز النفس ، شاعرا بعزته ، وكرامته ، رغم امتداحه للملوك وبذلك تخطى اعناق الدهور الى سماء الخلود ·

والمعرى قد كان اكثر شعورا بعزته وكرامته ، وبذلك نهج مذهبا جديدا فى الفكر ومدرسة حديثة فى تفهم الحياة » · (1)

ولا يخفى اننا نجد ، هنا ، الشاعر ، فى اجلى مظهر من مظاهر المجد الشعرى ، الذى يطالب للشاعر ولعبقريته بامجاد الحياة ·

وموقف الشابى لا يختلف بالمرة عن موقف الشعراء الابداعيين ، الذين هم ايضا ، فى اكثر من موقف ، واكثر من قصيدة وتاليف ، اشادوا بامجاد الفن والفنانين (مع ملاحظة ان كلمة Artiste تجمع الشاعر والكاتب والرسام والموسيقار ···) ·

فالشابى لا شك انه قد تشبع بهذه الفكرة من خلال جبران خليل جبران ، ومن خلال المدرسة المهجرية كلها ، التى تشبعت هى بدورها ، بالفكر الاروبى ·

---

1) يضيف الشاعر فى آخر اليوم « قد بقيت أحاديث أدبية كثيرة حال دون كتابتها هنا امتلاء الصفحة »

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

بين الأدب والفلسفة

قلنا ان مشكلة التأثر والتاثير من اهم المشاكل ، بل امها فيما يتعلق بالادب العربى ولقاحه بالآداب الاجنبية . لهذا اردت ان تكون يوميات الشابى ـ مفتاحا لهذا القصر ـ الذى يعده بعضهم تبعا لعقلية خرافية تعشق الغموض والسحر ـ « مسحورا » ما هى الاسماء التى تعترضنا فى يومياته .

اولا اسماء الكتاب المشارقة ، الذين عدهم الشابى نفسه اساتذته.

علينا ان نقرأ يومياته صفحة صفحة وان نستخرج منها الاسماء والمؤلفات (1) ، ان الشابى من قراء القصة ، ولكن اكتشفها

---

1) قد اعتمدت « يومياته » واستفدت منها فى البحث الذى نشرته عن « الوسط الزيتونى من سنة 1920 الى سنة 1935 » انظر اعلاه الهامش (3) من الفصل « الحركة الثقافية فى تونس 1930 » .

بفضل القصاصين المصريين ، **اولا** المازنى « وهذه للمازنى ايضا » وهى قصة تمثل الشقاء العائلى وتغنيه • اجل تغنيه ، فهى انشودة منثورة • وهل كتب المازنى من يوم عرف نفسه غير النشيد • ولا تطمع ايها القارىء ان الخصها لك • فانى لن افعل ، ولكننى اقول لك :

انها قطعة تمزق نياط القلب فان كنت ترهب ان تحس انكسارا بقلبك ، وان كنت تشفق على قلبك ، فانى انصحك ان لا تقرأها • بل تقرؤها ، وليس بقلبك المترف الانيق ••• الى المقبرة • وهناك فادفنه ، فى قبر فى الصحراء حولك دون ان تشعر بكوثرته او خريره •

والمازنى كاتب لم يفقه نفسه الا من عهد قريب •
من يوم اخرج كتابه « قبض الريح » اما قبل ذلك فقد كان طفلا صغيرا (2) •

وابناء « اصحاب » (3) الفنون فى عالم الفن كالرواد المكتشفين فى هذا العالم ، واحد لا يرحل يوما او بعض يوم حتى يكتشف « الدنيا الجديدة » فى اعماق نفسه •

---

2) هذه السطور شطبها الشابى فى الاصل لكن استطعنا قراءتها
3) كلمة شطبها الشابى

والآخر لا يكتشفها حتى يطوف ويعيا ويفنيه البحث والتفتيش في اقيانوس نفسه ·

والمازني من هذا الصنف الاخير ، فهو يوم كان يهب عقله ، لم يكن حينذاك يوم اخرج كتابه « حصاد الهشيم » الا طفلا صغيرا يركب ··· (4)

والمازني في هذا الصنف الاخير · فهو قد خلق بطبعه فنانا والفنان مزيج من بديهة ملهمة وعقل دائب واحساس مرهف منسوب، او قل مزيج من الحساس والمفكر والفيلسوف ، او قل انه قطعة من صميم الحياة ، تعاطف الاحياء ويعاطفونها وتستميلهم ـ كلهم ـ بفيض من عطف الامومة وحنانها الشامل العميق · ولكن المازني لم يقف (عند نفسه) ويكشف « الدنيا الجديدة » في قلبه قبل « قبض الريح » ، بل كان طفلا صغيرا يتعسف متعثرا في طريق لم تخلق لها قدماه بل كان « يركب عقله » ويرتسم آثار العقاد ·

* * *

ولا عجب ان يستميل العقاد الشابي، ويستهويه ، ويميل به اليه، لانه المفكر الذي عرف كيف يوقف العقل على قدميه ، وكيف يجعل

4) هذه السطور محاها الشابي ولكن استطعنا قراءتها

من نزواته « تفكيرا » وتفكيرا حقا · فلهذا ترى الشابى ، فى يومياته يفضل العقاد على المازنى وعلى طه حسين وعلى هيكل ··· ولعل سبب ذلك ان الشابى أخذ يميل منذ سنة 1930 الى الشعر الفلسفى، والى كل تفكير ـ عربى ـ متماسك صميم ·

ولهذا يقول فى العقاد :

« والعقاد عملاق يمشى بخطوات الجبابرة · وما كتابه « حصاد الهشيم » الذى اصدره فى ذلك العهد الا كهف (عميق ، يردد رجع) (5) تدوى فى جوانبه افكار العقاد واصداؤه » ·

* * *

ثم نراه يوما وقد زار من جديد ، مطبعة العرب ، يجد احد اصدقائه وبيده « السياسة الاسبوعية » يقول فتناولتها واخذت اقرأ بعض الفصول فيها ، فوقع نظرى فيها على فصل موجه الى الدكتور هيكل اذكرنى بفكرة انتقادية ، وجهتها على مقدمة هيكل التى كتبها لكتابه « تراجم مصرية وغربية » ، والتى اختصر فيها تاريخ مصر وذكر فيها آراء غريبة وطرقا شاذة من التاريخ ودراسته ، فصارحت صديقى بفكرتى فالح على فى ان اكتبها وانشرها على صفحات «العالم» فوعدته ولكنى لم اكتبها لحد الآن ولا ادرى هل انا كاتبها ام لا · ان فكرة

5) سطور خطبها الشابى أيضا ولكن استطعنا قراءتها

المقال جاهزة مهياة لا تحتاج الا لاجراء القلم ، فاذا المقال حاضر ... »

* * *

ولكن الشابي ، لا يقف في ثقافته عند المدرسة المصرية بل يتعداها الى انواع اخرى من الثقافة ، ومن المطالعة والبحث نجدها في يومياته .

وفي يوم **الثلاثاء 28 جانفي** نراه يتحدث عن فرويد Freud وعن مذهبه في الشعور واللاشعور ، فيقول :

« مسكينة هاته النفوس ، وما اصغرها واحقرها وأضيق آفاقها . كنا اليوم بدرس الاستاذ مسيو لاموت الذي ندرس عليه دروس « العقود المسماة » ولما جاء الاستاذ واراد الشروع في درسه اراد ان يحدثنا عن (العقل الباطن) و (العقل الواعي) الذي طالما حدثنا عنهما، ودعا اجهرنا صوتا لتلاوة فصل بها يتعلق بالموضوع وبسطه .

وما ان اخذ التلميذ في تلاوة الفصل واخذ الاستاذ في تبيينه حتى رأيت بسمات هازئة ووجوها سائمة وملامح متضجرة لانها نفوس الفت ان تعيش في منطقة ضيقة من مناطق الحياة والتفكير لا تستطيع ان تحيا في سواها وتعدوها . لم تالف غير علوم « جامع

الزيتونة » واساليبه ، ولم تقرا من غير ذلك الا دروس الحقوق · مسكينة هاته النفوس مسكينة » ·

* * *

ثم نرى الشابى ، يحدثنا عن ثقافة اوسع واشمل ويبرهن على اننا نجد انفسنا امام ثورة فكرية وصلت اعماق الطالب الزيتونى ، ذلك الطالب الذى عاش قرونا وفكره فريسة الجمود والفوضى ·

« ثم انتقل بنا الحديث الى السدم » واقسامها وجاذبيات النجوم ·

ثم الى فلسفة « انشتاين » الفيلسوف الالمانى الكبير · هاته الفلسفة التى تحاول ان تقلب ما اطمانت اليه اذمغة الفلاسفة والطبيعيين راسا على عقب · هاته الفلسفة التى مثلها فى الفلسفة المادية مثل الفلسفة « اللاادرية » فى مذاهب الفلسفة الاخرى » ·

صور من الجو الفكري 1930

ومن مزايا يوميات الشابي انها تقدم لنا ، في صور متباينة، شهادة صادقة،ونادرة الوجود على الجو الفكري،العربي،في تونس،سنة1930.

فانك تجد اولا كيف انتقلت العقلية من الغموض الى التحليل . نعم ، اصبحت العقلية ، « التقليدية » تحليلية وها الشابي وصديقاه يحللان ، بعد ما سمعا درس الاستاذ لاموت عن « العقل الباطني » و « العقل الواعي » يحللان ، مواقف شخصية .

« واخذنا نتحدث عن اعمال العقل الباطني في الحلم . فقال صاحبي انه حل مسالة هندسية غامضة في نومه ، مع انه لم يستطع حلها في يقظته رغم تفكيره فيها اسبوعا كاملا . فحدثته انا عن نظمي

الشعر فى المنام وقصصت عليه التى تمت مرة فرايت منظرا غاية فى الروعة والبهاء وسحر الجمال دفعنى الى ان اقول الشعر فيه .

رأيت اولا فى الافق قطعا من الغيوم منشورة ويحيط بكل قطعة اطار من نور كلون الشفق ثم تلاشى هذا المنظر ، فاذا بى فى قصر منفرد وبجانبى غادة رعبوب مرخاة الذوائب وعلى السماء حجاب من غمامة كثيفة بيضاء . ثم انهمل المطر من السماء وفاض من الارض ولكن بكيفية غريبة لم اشاهدها ولن اشاهدها، ذلك ان السماء لم تكن تمطر مطرا عاديا ولكنه مطر يشبه رغوة الموج فى بياضه . وكانت الارض تفيض قبل تلك الامواج التى تخالط ما تنزله السماء ، فكان من اختلاطها منظر عجيب رائع لا استطيع ان اصفه ولا انساه .

وقال صديقى : انه كثيرا ما شاهد النجوم قد تالفت وتراكبت وتالف منها كلام مسطور يخيل اليه انه يحتوى سر العالم » .

وهكذا تشعر بمدى ما كان يضطرب فى عقول ذلك الجيل .

الفهـــرس

كلمة الناشر 5

تمهيد 7

المرأة والحب 9

الطبيعة والادباء 11

حياة المدارس 23

مرض الشابي من خلال يومياته 31

النزعة الابداعية 47

الحركة الثقافية في تونس عام 1930 61

معركة القدماء والمحدثين 73

من مظاهر التجديد 77

بين الادب الشعبي والادب الفصيح 83

الوسط الفني 87

بين الادب والفلسفة 91

صور من الجو الفكري .. 1930 97

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

طبع بمطبعة الدار التـونسية للنشر

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

محمد فريد غازي

ولد فقيد الادب التونسي محمد فريد غازي سنة 1929 بتونس، وتوفي بها فجاة سنة 1962 ٠

زاول دراسته الابتدائية بمدرسة ساحة خير الدين ، والثانوية بالمعهد الصادقي ، حيث احرز على شهادة ختم الدراسات الثانوية ٠ فالتحق بسلك المعلمين ، حيث باشر عمله في كل من صفاقس وتوجان بالجنوب التونسي ٠

ثم سافر الى باريس حيث احرز على الاجازة في اللغة العربية (1956) وعلى دكتوراه الدولة ، باطروحة اعدها حول ابن المقفع (1958) واخيرا على شهادة التبريز (1959) ٠ وعند عودته الى تونس ، عين باحثا بمعهد الدراسات العليا ، ثم استاذا بكلية الآداب ٠

وكان بالاضافة الى دراساته الجامعية ، يحرر المقالات والبحوث العلمية وينشرها في العديد من المجلات التونسية والعربية وحتى الاجنبية ، من ذلك مثلا : مجلة « العصور الحديثة » لجان بول سارتر ، « والآداب » لسهيل ادريس ، و « الفكر » « والتجديد » ٠٠٠

وقد كانت مقالاته هذه ، سواء النقدية منها او الفلسفية ، تثير نقاشا حادا في اوساط المثقفين ، وذلك ما كان يطمح اليه غازي ، اذ كان يريد للحركة الفكرية والادبية في تونس ان تنشط وتسترجع حيويتها ٠

اما مؤلفاته ، فهي عديدة ومتعددة الاتجاهات : فمن ديوان « الليل » الذي نظمه بالفرنسية ، الى مجموعة نصوص في القصة المعاصرة اصدرته له اليونسكو ، الى ترجمة كتاب « النهر الحر » لطاغور ، « وسكوت البحر » لفركور ، « ومسافر بلا حقائب » لآنوي ٠ كما نقل كتابي « السد » « ومولد النسيان » لمحمود المسعدي الى الفرنسية ٠

اما الدراسات النقدية ، فله منها في ميدان الشعر كتاب « الشعراء ا وهو دراسة حول الشعراء التونسيين الذين ماتوا في ريعان الشباب ٠

وفي ميدان القصة ، له « القصة والاقصوصة في تونس » باللغة الفر

كما الف عددا من القصص والمسرحيات ، ما زالت تنتظر النشر ٠

وكان الفقيد يتميز بنشاطه وحيويته وتواضعه ٠ وكان يميل الى ال الوجودية بمعناها الواسع ٠ ويسلك المنهج العلمي الذي يعتمد البر والحجج في كتاباته النقدية ٠